كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

صانع اللعب

وقصص أخرى

21

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

● مع بدء العد التنازلى ، نحو القرن الحادى والعشرين ..

● مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..

● مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..

● مع كل هذا جاءت كوكتيل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..

● إلى الحضارة ..

● إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق



قانون البقاء

(قصة قصيرة)

« اجمع كل الكتيبة .. »

انطلق نداء القائد ، وبلغ آذان الجميع ، فى الثانية إلا عشر دقائق ، فى يوم السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م ، فتراصت الصفوف بسرعة ، وأطلّ الاهتمام والفضول من العيون ، مع تلك النبرة الحماسية ، التى زغردت فى صوت القائد ، وهو يقول :

ـ أبشروا يا رجال ، الآن فقط يمكننى أن أبلغكم أن الأوامر قد صدرت بعبور القناة ، وبدء الحرب الشاملة ، ضد العدو الإسرائيلى .

خفقت القلوب فى عنف ، مع الكلمات التى طال الاشتياق إليها .

ولكن قلب الجندى (شعبان) بالذات كانت خفقاته تختلف ..

لم تكن مجرَّد خفقات قلب نبض طويلا بالرغبة فى الثأر من العدو ، واستعادة الكرامة المهدورة فى آخر الحروب ، عام ١٩٦٧م، كغيرة من قلوب بقية الجنود والضباط فى الكتيبة ..

لقد كانت ذكريات تستيقظ ..

ذكريات اندفنت طويلاً فى هذا القلب ، وغرقت فى أعماق شعور قوى بالمرارة والألم ، لم يفصح عنه لسان صاحبه قط ..

ومع كلمات القائد الحماسية ، انطلق عقل (شعبان) يستعيد تلك الذكريات ..

ذكريات نكسة يونيو ١٩٦٧ م ..

أيامها كان جنديًا بسيطا حديث التجنيد ، تم نقله بعد تدريبات بسيطة ، إلى وحدة من الوحدات المتمركزة فى (سيناء) ، على مسافة قريبة من قناة (السويس) ..

وقبل أن يستقرَّ به المقام ، اندلعت الحرب ..

بل قل : حدثت الكارثة ..

لم تكن حربًا بالمعنى المفهوم ، فقد استيقظ يوم الخامس من يونيو ، واشترك مع زملائه فى طابور الصباح كالمعتاد ، ثم راحوا يزاولون أعمالهم الروتينية ..

وظهرت تلك الطائرات فى الأفق ..

طائرات برزت فجأة ، على ارتفاع منخفض ، وانقضت على الجميع بغتة ، وراحت تمطرهم بنيران وقذائف لا تنقطع ..

يومها جرى إلى سلاحه ، وراح يطلق نيرانه نحو تلك الطائرات ، متصورًا أن رصاصاته البسيطة قادرة على إسقاطها وتحطيمها ..

ومن حوله ، تساقط رفاقه وقادته ، وتعالى دوى الانفجارات ، وصواريخ العدو تنسف الثكنات والمعدات ..

وكما بدأ القتال فجأة ، انتهى فجأة ..

ألقت طائرات العدو حمولتها ، ونسفت ما نسفت ، وقتلت من قتلت ، ثم واصلت طريقها وكأن شيئا لم يكن ، مخلفة وراءها نهرًا من الدماء الزكية ، لترتوى بها رمال (سيناء) الطاهرة ..

وفى جزع وارتياع ، راح يلهث باحثًا عن رفاقه ..

وكانت الصدمة أعنف مما تصوَّر ..

الجميع لقوا مصرعهم ..

تقريبًا الجميع ..

لم يتبقَّ سواه ، وسوى ثلاثة من الجنود وضابط واحد ، اشتركوا جميعًا فى ذلك الشعور المؤلم بالهزيمة والعار ..

وعندما أعلنت القيادة السياسية الانسحاب ، تحوَّلت مشاعرهم إلى دموع غزيرة ، أغرقت وجوههم وقلوبهم ، وهم يتراجعون منسحبين ، دون خطة مسبقة ، أو أمل فى النجاة ..

وفى الطريق ، سقط الضابط الجريح ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، ثم لحق به جندى آخر ، وبقى (شعبان) وحده مع رفيقيه ، وقد التهبت أقدامهم ، وتقطَّعت أنفاسهم ، وبدا لهم وكأن الطريق إلى القناة صار ضربًا من المحال ، لن يمكنهم بلوغه أبدًا ..

ثم ظهرت تلك الفرقة الإسرائيلية ..

مجرَّد سيارة جيب ، تحمل على جانبها نجمة (داود) ، وفى داخلها أربعة من الجنود الإسرائيليين ، ملأ ذلك النصر السريع

قلوبهم بالزهو والخيلاء ، فخرجوا لاصطياد المنسحبين ، وكأنهم في رحلة صيد طريفة .

ولن يمكنه أن ينسى ما حدث قط ..

الإسرائيليون أطلقوا النار على أحد رفيقيه بلا رحمة ، ودون أن يبدى مقاومة ، وانطلقت ضحكاتهم كالوحوش الكاسرة ، التى ظفرت بفريسة سهلة ، ونهشتها فى لهفة واستمتاع ..

والتهبت الدماء فى عروقه ، ودماء رفيقه تروى رمال (سيناء) ، وأدار فوهة مدفعه إلى السيارة الإسرائيلية ، وأطلق النار ..

كان الوحيد الذى أصرّ على الاحتفاظ بسلاحه طوال الوقت ..

ولكن ذخيرته لم تحتمل القتال طويلا ..

لقد نفدت ذخيرة مدفعه بعد ثلاث أو أربع طلقات ..

وانطلقت من الجيب الإسرائيلية ضحكة مجلجلة ..

ضحكة جندى إسرائيلى غليظ الملامح ، كث الحاجبين ، ما زالت ملامحه محفورة فى ذاكرته ، حتى هذه اللحظة ..

وفى سخرية مزّقت نياط قلبه ، هتف ذلك الإسرائيلى :

ــ هؤلاء المصريون لا يتعلمون أبدًا .

ثم وثب من السيارة ، وصوّب إليه مدفعه ، وهو يستطرد فى جذل وحشى :

ــ حاول أن تفهم أيها المصرى .. إننا نُطبّق قانون البقاء البسيط .. ذلك القانون الذى يؤكد أن البقاء للأقوى ..

ومال نحوه ، مستطردًا فى غلظة متشفية :

ــ ونحن الأقوى أيها المصرى .. نحن وخلفنا (أمريكا) كلها أكثر قوة منكم .

لحظتها اشتعلت كرامته ، وانجرح كبرياؤه ، فانقض على الإسرائيلى بقبضته ، على الرغم من المدفع المصوب إليه ، ولكن الإسرائيليين الأربعة هاجموه معا ، وهزمته كثرتهم ، وهم يتكالبون عليه ، وضحكات ذلك الإسرائيلى تخترق أذنيه ، وتجرى منهما إلى قلبه ، فتدميه ، وتحرقه بنيران باردة مخيفة ..

وأسره الإسرائيليون ..

أسروه باستهتار عجيب ، حتى أنهم لم يهتموا كثيرا بحراسته ، أو حتى بتقييده ، وكأنما جمعوا جيشا من الأسرى ، ولم يعد يعنيهم الاحتفاظ بالمزيد ..

وربما كان هذا ما ساعده على الفرار حينذاك ..

إنه لا يذكر كيف فعل هذا بالضبط ، ولكنه يذكر جيدا أنه كان يجرى بكل قوته ، نحو الشاطئ الشرقى للقناة ، وكلمات الإسرائيلى تدوى فى أذنيه ..

« والبقاء للأقوى أيها المصرى .. ونحن الأكثر قوة » .

وعبر القناة ..

عبرها سابحا ، من الضفة الشرقية إلى الغربية ، وقد بدا له أن المياه التى تضربها ذراعاه ، هى فيض دموعه ، التى سكبها ألما ومرارة وحزنا ..

ولم ينس ذلك الإسرائيلى ..

لم ينسه قط ..

« استعدوا يا رجال .. الآن سنعبر القناة .. » .

تفجّر حماسه ، وقفز إلى ذروته ، عندما خرجت زوارق العبور ،

وحمل سلاحه ، وحانت اللحظة التى انتظرها ست سنوات كاملة ..

لحظة العبور من الغرب إلى الشرق ..

لحظة العودة ..

والثأر ..

وبحماس الدنيا كله ، وثب داخل زورق العبور ..

وعبر ..

كانت القنابل تدوى من حوله ، ممتزجة بهدير الطائرات ، التى تشق القناة ، وتنهال بنيرانها على خط (بارليف) ، فى نفس الوقت الذى تنهال فيه عليه ، وعلى رفاقه ، نيران العدو ، فتطيح بزوارق كاملة ، بكل ما فيها ومن فيها ، وتصبغ مياه القناة بدماء شهداء مصر الأبرار ..

تمامًا كما حدث فى عام ١٩٦٧ م .

ولكنه كان يعلم أن كل شىء يختلف ..يختلف كثيرًا ..

فالدماء تُبذل هذه المرة فى سبيل الثأر ..

فى سبيل الكرامة ..

تُبذل لاستعادة الأرض المسلوبة ، والكرامة المجروحة ..

إنها حتمًا تختلف ..

وهذا الاختلاف هو الذى جعله يقاتل كالوحوش ، ويتصدّى للنيران بصدر مفتوح ، ويتسلّق خط (بارليف) فى حماس مثير ، ويقتحمه فى استبسال مدهش ، أثار الأعداء قبل الأصدقاء ..

كان يشعر أنه لا يعبر مجرّد مانع عسكرى قوى ..

بل يعبر شعورًا بالمرارة والهزيمة ، لازمه طويلا ..

طويلا جدًا ..

يعبر لحظة عار ، عذّبه مذاقها ست سنوات كاملة ..

نعم .. لقد اقتحم خط (بارليف) ، ليقتحم معه مأساة حياته كلها ..

وعندما قاومتهم تلك النقطة الحصينة طويلا ، كان هو أوّل من تطوّع لمهاجمتها على نحو انتحارى ، فتسلّل إلى فتحاتها ، وألقى منها قنابله ..

ودوت الانفجارات تعلن الانتصار ..

الانتصار على آخر نقطة حصينة فى المنطقة التى أسندت لكتيبته مهمة الاستيلاء عليها من خط (بارليف) ..

وبينما كان أحد رفاقه يغرس العلم المصرى على الموقع ، اقتحم هو النقاط المستسلمة ، ليحمى الأسرى والمصابين من العدو ..

وفجأة ، وقعت عيناه عليه ..

ذلك الإسرائيلى الضخم الوقح ..

لم يعد جنديًا كما كان ..

لقد صار ضابطًا فى جيش (إسرائيل) ..

هذا كل ما تغيّر فيه ..

أعنى فى مظهره الخارجى ..

فهناك ، فى أعماقه ، تغيّر الشىء الكثير ..

إنه لم يعد يضحك ..

لم تعد ضحكاته المجلجلة الساخرة تدوى فى المكان ..

لقد تحطمت غطرسته ، وانهزم غروره ، واندحر زهوه القديم بنفسه ..

تلك النظرة الذليلة ، المطلة من عينيه ، كانت تشف عن هذا فى وضوح ..

وفى لحظة ، استعاد ذهن (شعبان) ذكريات سنوات مضت ..

استعاد مشهد زميله ، وهو يلقى مصرعه ..

لحظة الهزيمة ..

والعار ..

والمرارة ..

كل ذكرياته اجتمعت ، عند وجه هذا الإسرائيلى ..

وفى صرامة ، اقترب منه (شعبان) ، وألصق مدفعه بجانبه ، وهو يقول :

ــ هل تذكرنى أيها الإسرائيلى ؟

رفع الرجل عينين متسائلتين حائرتين إليه ، فأضاف :

ــ يومًا ما أخبرتني أن البقاء للأكثر قوة .. البقاء للأقوى ..

بدت علامات التذكر على وجه الإسرائيلى ، وامتزجت بذعر هائل ، وهو يلوّح بيديه متوسلًا ، هاتفًا :

ــ لا أيها المصرى .. لا تقتلنى .. الرحمة .

خفض (شعبان) فوهة مدفعه ، وهو يقول :

ــ لن أقتلك أيها الحقير .. الرصاصة التى أرغب فى إيداعها جسدك ، سأدخرها لآخر من جيشك ، لم يقع فى أسرنا بعد .. أما أنت ، فكل ما أرغب فى فعله معك هو أن أخبرك أنك مخطئ فى نظريتك عن قانون البقاء ..

بدت الدهشة والحيرة والذعر فى عينى الإسرائيلى ، و (شعبان) يميل نحوه ، ويضيف فى صرامة شديدة :

ــ القانون نفسه صحيح ، ولكن البقاء ليس للأقوى ، وإلا لكانت الديناصورات هى التى تسود الأرض الآن .. البقاء دائمًا للأفضل أيها الوغد .. للأفضل وحده .

ثم تراجع مستطردًا فى ارتياح :

ــ هذا هو قانون البقاء الحقيقى .

وفى اللحظة التى سقط فيها فك الإسرائيلى ، فى ذهول مبهور ، كان (شعبان) يتجاهله تمامًا ، وقد زايله كل شعور بالمرارة والألم ، وانطلق ليواصل قتاله فى تلك الحرب ، التى أعادت إليه كرامته وآدميته ..

والحرب من أجل البقاء ..

للأفضل ..

* * *



اختبر معلوماتك

اعتدنا أن نلتقى معًا مرتين ..

مرة فى سلسلة (كوكتيل ٢٠٠٠) ، والأخرى فى شقيقتها الصغرى (زووم) ..

وفى كل مرة ، نقدِّم لك مجموعة مختارة من الأسئلة ..

وعدد لا بأس به من المعلومات ..

وعليك أن تقرأ المعلومة جيدًا ، عزيزى القارئ ، ثم تحاول إجابة السؤال التقليدى المستمر ..

هل أنت مثقف ؟! ..

* * *

١ ـ عالم نبات ، وُلِدَ بمالقة ، وسافر إلى بلاد الإغريق ، والروم ، والمغرب .. عاين منابت النبات ، ودرسها ، ودخل فى خدمة الملك الكامل الأيوبى ، فعينه رئيسًا للعشّابين ، وألّف كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) ، وله الفضل فى وصف ثلاثمائة نوع من العقاقير ، لم يسبق وصفها من قبل ، وهذا العالم هو :

□ ابن بردى . ■ ابن البيطار . □ ابن جبير .

٢ ـ جهاز لقياس التغيرات فى الضغط الجوى ، يتركّب أساسًا من أنبوبة طويلة ، تحوى مادة الزئبق ، الذى يرتفع وينخفض ، تبعًا لوزن الهواء الجوى ، ويتأثّر بالتغيرات ، مثل الرطوبة ، مما يجعله صالحًا لقياس تغيرات الطقس ، ولقد اخترعه العالم (تورشيلى) ، عام ١٦٤٣ م ، وهذا الجهاز هو :

□ الترمومتر . □ الاسبكتروسكوب . ■ البارومتر .

٣ ـ حيوان رخوى رأس قدمى ، يوجد بالبحار الدافئة ، عديم الصدفة ، له جسم كيسى الشكل ، وثمانية أذرع ، ويبلغ طول الذراع ، فى بعض أنواعه ، حوالى سبعة أمتار ، لعابه سام ، يعمل على تخدير الفريسة ، قبل تمزيقها بالأذرع والفكين ، وفى حالة الخطر ، يفرز مادة شبيهة بالحبر ، تخفيه عن الأنظار ، وهذا الحيوان هو :

□ الدرفيل . ■ الأخطبوط . □ المحار .

٤ ـ عنصر فلزى ، أبيض اللون تقريبًا ، لامع رخو ، قابل للطرق والسحب ، وموصل جيد للحرارة والكهرباء ، ولكنه غير نشيط كيميائيًا ، تستعمل مركباته الهالوجينية فى التصوير الضوئى ؛ لحساسيتها مع الضوء ، كما تُستعمل أملاحه لتفضيض المرايا ، وهذا العنصر هو :

■ الفضة . □ الزئبق . □ الخارصين .

٥ ـ مدينة قديمة ، عاصمة (مصر) فى العصر الرومانى ، تقع على الشاطئ الشرقى للنيل ، عند (مصر) القديمة حاليًا ،

كان اسمها فى العصر الفرعونى (خرى ـ عحا) ، ومعناه ساحة القتال ، واسمها الحالى هو :

☐ الأقصر . ☐ أسوان . ☐ بابليون .

٦ ـ حالة تنشأ من كثرة اختزان الدهون بالجسم ، سببها الغالب هو الإفراط فى تناول الطعام ، ولكنها قد تنشأ بسبب نقص إفرازات بعض الغدد ، وتؤدى إلى عدد آخر من الأمراض ، وعلاجها الأمثل هو الإقلال من كم الطعام ، ومن الدهون والنشويات ، وهذه الحالة هى :

☐ التخمة . ☐ البدانة . ☐ ضغط الدم .

٧ ـ هى قابلية عمل شغل ، وتتضمن عدة أنواع ، حرارية ، ضوئية ، صوتية ، كهربية ، كيماوية ، ميكانيكية ، وذرية ، ويمكن تحويلها من صورة إلى أخرى ، ولكن قاعدتها الثابتة هى أنها لا تفنى ، ولا تستحدث من عدم ، وهى :

☐ الطاقة . ☐ القدرة . ☐ المقاومة .

٨ ـ لعبة ابتكرها الأمريكى (وليم مورجان) ، لكى تمارس فى الهواء الطلق ، أو فى مساحة داخلية محدودة ، ويتكون كل من فريقيها من اثنى عشر لاعبًا ، يلعب ستة منهم فقط ، ويبقى الآخرون للتبديل ، وفيها يتم تبادل الكرة بالأيدى ، عبر شبكة تتوسط الملعب ، ويشترط عدم ملامسة اللاعب الواحد للكرة مرتين متتاليتين ، ويتكون كل من شوطيها من ١٥ نقطة فقط ، وهى :

☐ كرة القدم . ☐ كرة السلة . ☐ الكرة الطائرة .

٩ ـ عملية تنشأ عن انقباضات منتظمة متتالية ، تقوم بها عضلات اللسان والبلعوم والمرىء ، فيجمع الطعام بعد مضغه فوق اللسان ، يقذف من برزخ الحلق ، حيث تستمر مرحلة الهضم ، ويطلق على هذه العملية اسم :

☐ المضغ . ☐ البلع . ☐ الهضم .

١٠ ـ تغير فى زرقة النهار أو سواد الليل ، مع شروق الشمس أو غروبها ، فتميل السماء إلى الاصفرار أو الاحمرار ، بسبب تشتت أشعة الشمس ، فى طبقات الجو القريبة من سطح الأرض ، الغنية نسبيًا بالأتربة أو بخار الماء ، وهذه الظاهرة تعرف باسم :

☐ الشفق . ☐ الخسوف . ☐ الكسوف .

١١ ـ فقيه قرأ على (مالك بن أنس) بالمدينة ، والتقى بتلاميذ (أبى حنيفة) فى (العراق) ، تولى قضاء (القيروان) ، وقاد حملة الأغالبة إلى (صقلية) ، فدخلها فاتحا ، وتوفى وهو يحاصر (سرقسطة) ، وهو :

☐ أبو حنيفة . ☐ الليث بن سعد . ☐ أسد بن الفرات .

١٢ ـ وعاء دموى ، يحمل دائما دما يحوى الأكسجين النقى ، من القلب إلى أجهزة وخلايا الجسم المختلفة ، ولا يستثنى من هذه القاعدة سوى النوع الرئوى منه ، الذى يتجه من القلب إلى الرئة ، حيث يحوى دما فقيرا فى نسبة الأكسجين ، لتتم تنقيته فى

الرئة ، وهذا الوعاء هو :

□ الوريد . □ الشريان . □ الأورطى .

١٣ ــ شعبة حيوانية واسعة الانتشار في البحار ، لها أكثر من ألفين وخمسمائة نوع ، ومنها فصيلة واحدة تعيش فى المياه العذبة ، توجد عادة فى جماعات مثبتة على الصخور ، لها هيكل داخلى من شويكات كلسية ، ويعتبر النوع المصرى منها من أفضل المنتجات تجاريًا ، وهى :

□ الرخويات . □ القشريات . □ الاسفنجيات .

١٤ ــ جمهورية فى وسط (أفريقيا) ، بها بحيرات (تنجانيقا) و (كيفو) وأهم مصادر الثروة بها الحيوانات ، والأخشاب ، والقطن ، والبن ، ونخيل الزيت ، والمطاط ، اسمها الحالى جمهورية (زائير) ، ولكنها كانت تحمل فى الماضى اسمًا آخر ، وهذا الاسم هو :

□ أوغندا . □ الكونغو . □ أرتيريا .

١٥ ــ شجرة صغيرة دائمة الخضرة ، أزهارها لها رائحة عطرية مميَّزة ، قبل أن تنضج وتصير ثمارًا حمراء داكنة ، تنتشر زراعتها فى (البرازيل) ، و (اليمن) ، و (أثيوبيا) ، ويعتقد أن الأخيرة هى موطنها الأصلى ، وبذورها شهيرة ، وتستخدم فى صنع مشروب منبه قوى ، يعرف فى معظم بلدان العالم ، وإن اشتهرت به الدول العربية و (تركيا) ، وهذه الشجرة هى :

□ الكاكاو . □ المطاط . □ البن .

١٦ ــ آخر معارك (نابليون بونابرت) ، وقعت فى (بلجيكا) ، ضد القوات البريطانية ، والروسية المتحالفة ، التى أراد

(نابليون) هزيمتها ، قبل أن تلتحم بالقوات النمسوية والروسية ، ولكنها انتهت بهزيمته ، وتنازله عن العرش ، ونفيه فى جزيرة (سانت هيلانة) ، وهذه المعركة هى :

□ واترلو . □ الطرف الأغر . □ أبو قير البحرية .

١٧ ــ أعظم الشعراء وكتاب المسرح الإنجليز ، جعل المسرح الإنجليزى فنًا عالميًا ، وظلت حقيقته سرًا غامضًا حتى الآن ، ولقد تأثر بمعاصريه ، من كتاب المسرح ، وخاطب الذوق الشعبى بمآسيه التاريخية العنيفة ، ومن أشهر مؤلفاته (هاملت) ، و (الملك لير) ، و (ماكبث) ، و (أنطونيو وكليوباترا) ، وهو :

□ هنريك أبسن . □ وليم شيكسبير . □ آرثر ميلر .

١٨ ــ عاصمة (تشيكوسلوفاكيا) ، على نهر (مولداو) ، وتعتبر مركزًا هامًا للمواصلات والثقافة ، اشتهرت بإنتاج المعدات الثقيلة ، والسيارات ، والمصنوعات الجلدية ، خربها الألمان ، واحتلوها فى الحرب العالمية الثانية ، ثم تم تحريرها فى مايو ١٩٤٥ م ، وهذه المدينة هى :

□ بلجيكا . □ زغرب . □ براج .

١٩ ــ عشب حولى متسلق ، اسمه العلمى (بيزم ساتيفم) ، من الفصيلة القرنية ، موطنه شمال (آسيا) و (أوروبا) ، أزهاره بيضاء أو بنفسجية ، والثمرة عبارة عن قرن طويل أخضر ، والبذور بها نسبة عالية من البروتين ، وتؤكل خضراء ، أو جافة ، وهو :

□ البازلاء . □ الفاصوليا . □ الفول .

٢٠ ــ مؤرخ عربى ، شهد الفتح العثمانى ، وعاصر الأحداث

الأخيرة من حكم المماليك الشراكسة فى (مصر) من أشهر كتبه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) ، الذى نشرت ثلاثة أجزاء منه فى (مصر) ، ثم أضيف إليه جزءان فيما بعد ، وهذا المؤرخ هو :

□ الجبرتى . □ هيرودوت . □ ابن إياس .

* * *

أسئلة هذا الكتاب ليست صعبة أو عسيرة كما ترون ..

إنها فى معظمها من أواسط المعلومات العامة ، وفى قلب مقرراتكم الدراسية ..

وهذا لا يعنى أن الأمر صار أكثر سهولة ..

فما زلنا نوجه لك سؤالنا التقليدى ..

والآن هيا .. حاول أن تحل الأسئلة ، ثم تراجع الإجابات فى نهاية الكتاب ، وعندئذ ستعرف جواب السؤال ..

هل أنت مثقف ؟! ..

* * *



رسالة (قصة قصيرة)

خطيبى (فريد) ..

اعذرنى لأننى بدأت خطابى لك بهذا اللقب ، الذى تعتبره دائما تقليديًا جامدًا ، ولكننى حاولت أن أبدأ الخطاب بلقب (حبيبى) . أو حتى (صديقى) ، إلا أننى لم أستطع هذا قط .

أعلم أن هذه البداية قد تصدمك كثيرا ، وتثير سخطك وغضبك ونقمتك .

ولكن ما باليد حيلة ..

أنت تعرفنى جيدا يا (فريد) ..

لا يمكننى أبدًا أن أنطق أو أكتب ما لا أشعر به ، أو أومن به ..

وهذا أيضا سيصدمك ..

وقبل أن ترتجف شفتاك غضبا ، كما يحدث عادة ، دعنى أوضّح لك موقفى ، الذى دفعنى لكتابة هذا الخطاب إليك ، بدلا من أن أسرد محتوياته على مسامعك عندما نلتقى ..

ودعنا نعود إلى البداية ..

إلى لقائنا الأول ..

كان هذا فى حفل الكلية ، منذ عام ونصف العام تقريبًا ..

كنت أنا إحدى المعدّات للحفل ، فى حين حضرته أنت بصحبة شقيقتك ، التى تربطنى بها أواصر صداقة هادئة ، منذ التحقت بكليتى العملية ..

ولست أنكر أنك جذبت انتباهى منذ اللحظة الأولى ..

جذبتنى وسامتك الملحوظة ، ورصانتك الواضحة ، وتلك الرجولة الآسرة ، فى صوتك ونظراتك وملامحك ..

ومما لا شك فيه أننى أيضًا جذبت انتباهك فى ذلك الحفل ..

ولا تسألنى كيف لاحظت هذا أو عرفته ..

كلنا معشر الفتيات نفهم هذا بسرعة ..

إنها فراستنا الخاصة ، التى نتفوق فيها عليكم معشر الرجال ..

المهم أننا — وقبل أن نغادر الحفل — كنا قد اتفقنا على لقاء ثلاثى آخر ..

أنت وشقيقتك .. وأنا ..

وفى ذلك اللقاء الثانى ، ازداد تقاربنا ، وتوطّدت أواصر الصلة بيننا أكثر وأكثر ..

كان الحديث يدور حول عملك طوال الوقت ، وعلى الرغم من أننى لا أفهم الكثير عنه ، إلا أننى رحت أستمع إليك فى شغف ، وأمنحك أذنى طوال الوقت ، دون أن أقاطعك لحظة واحدة ، أو أرفع عينىّ عن شفتيك أبدا .

حتى شقيقتك لاذت بالصمت ، واكتفت بمراقبتى طوال الوقت ، وكأنما تسعى لأن تستشف ما يعتمل فى نفسى تجاهك ..

وفقط عندما انتهى اللقاء ، أدركت أننى لم أنبس ببنت شفة ..

ولكن هذا لم يضايقنى ..

كنت سعيدة للغاية ، لأننى استمعت إليك ، وإلى حديثك المتصل الهادئ ..

ومنذ ذلك الحين ، وحتى تمت خطبتنا ، فى حفل عائلى أنيق ، لم يتغيّر الوضع كثيرًا ..

أنت تتحدث طوال الوقت ..

وأنا استمع ..

فقط أستمع ..

ومع كثرة ما سمعت ، تكوّنت عندى فكرة واضحة عن عملك ..

فكرة أدهشتك أنت نفسك ، عندما بدأت أناقشك وأبدى آرائى فيما يتعلق بمشكلات العمل والخلافات مع زملائك ..

ولقد أسعدنى تقديرك لهذا ..

أسعدنى أكثر مما تتصوَّر ..

ومن فرط سعادتى ، بدأت انتقل ــ بصورة طبيعية ــ إلى الحديث عن حياتى أنا ..

عن دراستى ، وزملائى ، وصديقاتى ..

ولم يرق لك هذا ..

كنت تستمع إلىّ فى شىء من الضجر ، وتتململ طوال الوقت ، وتتشاغل عنى بالنظر إلى الطريق والمارة ..

ولست أنكر أننى لاحظت هذا منذ الوهلة الأولى ، ولكننى لم أتوقّف .

كنت مصرة على أن تدخل عالمى ، كما دخلت أنا عالمك ..

أردت أن تعرف عنى كل شىء ، كما عرفت أنا عنك كل شىء ..

ولكننى لم أنجح أبدًا ..

كان بداخلك إصرار شديد على تجاهل عالمى ..

إصرار بدا لى مهينًا إلى حد ما ..

ولهذا لم أستطع المواصلة ..

توقّفت فورًا عن الحديث عن حياتى ، وعدت أستمع إليك ، وأنت تروى الكثير عن حياتك ..

وتروى ..

وتروى ..

وحار عقلى فى البحث عن وسيلة لحوار متصل ، يربط كلاً منا بالآخر ..

حوار يصلح لأن نتبادله بعد زواجنا ، لا فى فترة خطبتنا فحسب ..

كنت أبحث عن أمر يمكننا مناقشته معًا ..

والتحاور فيه ..

وهكذا اخترت أبسط الأمور ..

الثقافة العامة ..

إننى أقرأ بنهم ، منذ سنوات طفولتى وصباى ، وتكونت لدى حصيلة ثقافية لا بأس بها ، تصلح كل نقطة فيها لحديث طريف ، أو حوار بسيط .

تصلح على الأقل للربط بين عقلين ، انغمس قلباهما فى حب كحبنا ..

ولكن صدمتى كانت عنيفة ..

كانت أعنف بكثير مما يمكن تصوّره ..

لقدانتبهت فجأة ، بعد عام ونصف العام من تعارفنا ، إلى أنك فارغ تمامًا ..

ليست لديك أية معلومات عامة ، بخلاف ما يخصّ عملك ..

فقط عملك ..

لست أدرى ما الذى كنت تفعله طيلة حياتك !! ..

ألم تقرأ أبدًا ؟!..

الم تحاول قط التزوّد بشىء من الثقافة أو المعرفة ؟..

ماذا فعلت بكل ما درسته فى مقرراتك الدراسية ، فى المرحلتين الإعدادية والثانوية ؟!..

هل ألقيت كل هذا خلف ظهرك ، بمجرّد التحاقك بالجامعة ،

أو بوظيفتك الجديدة ؟!..

هل محوته تمامًا من ذاكرتك ؟!..

إنك حتى لم تستوعب القضايا الهامة ، التى تشغل العالم كله ..

لم تفهم ما يعنيه مصطلح (البروسترويكا) ..

لم يكن يعنيك أمر المشكلات البينية أو الاقتصادية ، التى تواجه الوطن ..

ولا حتى التى تواجه العالم ..

الحديث عن ثقب الأوزون يضجرك ..

الحوار حول الإرهاب يثير فى نفسك الملل ..

حتى القضايا اليومية لم تعد تهتم بها ، من قريب أو بعيد ..

أنت فارغ ..

فارغ ..

فارغ ..

عقلك قرر طرح الدنيا كلها جانبًا ، والتركيز فقط على ما يخصّ عملك ..

وكأنما انحصر العالم كله فى عملك ..

ليس هذا فحسب ..

إنه يصرّ أيضًا على ألا يستمع إلى أى شىء بخلاف هذا .

أى شىء ..

ولهذا استسلمت ..

رفعت فى وجهك الراية البيضاء ، وأعلنت عجزى عن إيجاد لغة للحوار المشترك ..

وهذا يعنى أننى لا أستطيع الاستمرار معك ..

لا يمكننى أن أحيا إلى الأبد كمستمعة مخلصة ..

المفروض أن أستمع إليك وتستمع إلىّ ..

أن يتحدث كل منا أحيانًا ..

أن نتناقش ..

نتجادل ..

باختصار .. المفروض أن نحيا معًا ..

مرة أخرى اعذرنى يا (فريد) ..

لقد فكّرت فى الأمر ، ودرسته طويلاً ، ووجدت أننا لا نستطيع الاستمرار معًا أبدًا ..

سامحنى يا (فريد) ، وأنت تستعيد دبلتك التى أرسلتها لك مع هذا الخطاب ..

سامحنى لأننى لم أناقش الأمر معك وجهًا لوجه ، فقد خشيت أن يثير الاستماع الملل فى نفسك ، حتى ونحن نناقش أمرًا يتعلّق بحياتنا معًا ..

وربما اخترت أسلوب الخطاب بالذات ، لعلنى أنجح فى إجبارك على قراءة شىء ما ، بخلاف أوراق عملك ..

أى شىء ..

وأعتقد أننى نجحت هذا المرة ..

للأسف ..

وداعا يا (فريد) ..

وداعا إلى الابد ..

خطيبتك السابقة

(نسرين)

* * *

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

د . نبيل فاروق

١ ـ وما زال التدريب مستمرًا

انحدرت الشمس نحو الأفق ، فى رحلتها اليومية إلى المغيب ، وبدت كقرص أحمر ملتهب ، خلف تلك المجموعة الصامتة من المبانى والثكنات القديمة ، التى أحيطت بعدد قليل من الحرّاس ، فى ثياب بترولية اللون ، وكل منهم يتمنطق بزوج من المسدسات القوية ، وكأنما تلقّى تدريبات خاصة ، تتيح له التعامل بسلاحين فى آن واحد ..

وفى الممرات الواسعة ، بين المبانى والثكنات ، تحركت سيارة جيب إسرائيلية ، تحمل على جانبها نجمة (داود) السداسية ، بلون سماوى واضح ، وسط دائرة بيضاء كبيرة ، وتوقّفت أمام مبنى من طابقين ، حملت لافتته عبارة عبرية بحروف كبيرة واضحة ، تشير إلى أنه عبارة عن (كافيتيريا) ، أو مشرب مخصّص لضباط وجنود جيش الدفاع الإسرائيلى ..

وفى هدوء ، غادر السيارة الجيب ضابط شاب ، ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، تحمل ملامحه وسامة معقولة ، وسمرة شرقية واضحة ، واتجه مباشرة نحو المشرب ، وعندما عبر بابه ، ألقت عليه عيون الحاضرين نظرة سريعة ، قبل أن يعودوا إلى أحاديثهم وثرثرتهم ، بلغتهم العبرية ، ذات النغمات الشرقية الواضحة ، فى حين اتجه هو إلى الساقى ، وقال :

ـ أعطنى كوبًا كبيرًا من عصير البرتقال الطازج .

قال الساقى ، وهو يصب العصير :

ـ أربعون شيكلا (*) .

عقد الضابط حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أنت لص .. هذا المبلغ مبالغ فيه للغاية .

أجابه الساقى فى لا مبالاة :

ـ اكتب شكوى لجيش الدفاع ، فهو الذى يحدّد الأسعار هنا .

قال الضابط فى غضب :

ـ أنا أعرف أسعار المشروبات ، وأنت تسرق خمسة شيكلات على الأقل .

صاح به الساقى فى حدة ، وهو يبعد الكوب عن يده :

ـ ادفع المبلغ ، أو اترك العصير .. هل تفهم ؟

انعقد حاجبا الضابط ، وهو يقول :

ـ سآخذ العصير على الرغم منك ، وربما أحطّم أنفك أيضًا .

قالها ، واندفعت قبضته نحو أنف الساقى ، الذى تراجع هاتفا فى دهشة :

ـ حذار يا هذا .

لم يكد ينطقها ، بتلك اللهجة المصرية الخالصة ، حتى ارتفع صوت صارم يقول :

ـ خطأ .

ران الصمت التام على المكان ، واستدارت العيون كلها إلى مصدر الصوت ، حيث برز رجل حازم الملامح والقسمات ، يستطرد فى صرامة :

(*) الشيكل : عملة إسرائيلية .

ـ ليس من المفروض أن تنطق حرفا واحدا بالعربية ، مهما كانت المؤثرات .

ارتبك الساقى ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدى .. لقد حدث هذا عفوا .

أجابه الرجل بنفس الصرامة :

ـ أعلم هذا .. وهنا يكمن الخطر .. فى رد الفعل العفوى .. الشىء الوحيد ، الذى يمكن أن يكشف أمركم هو رد الفعل العفوى هذا .

ثم دارت عيناه فى المكان ، وكأنما يوجّه حديثه للجميع ، مضيفًا :

ـ لقد التحقتم جميعًا بهذا القسم ، كجزء من تدريباتكم فى مجال العمل الخارجى ، حيث المفروض أن يكون كل ما يحيط بكم هو قطعة من (إسرائيل) .. الطرق .. اللافتات ، اللغة ، وحتى نوع المشروبات المقدّمة ، والعملات المستخدمة ، والمفروض هنا ، فى القسم (٣٠ج١٠) ، أن تعيشوا وتتعايشوا كما لو كنتم داخل (إسرائيل) نفسها ، بحيث يصبح الواحد منكم مؤهلاً لأن يتم زرعه هناك ، فى أية لحظة ، إذا ما اقتضت الحاجة ، والحديث باللغة العربية ، تحت تأثير انفعال طارئ ، أو رد فعل عفوى ، يمكن أن يعتبر هنا مجرّد خطأ ، يستوجب المساءلة والعقاب ، ولكن لو حدث هذا هناك ، فى قلب (إسرائيل) فسيصبح بمثابة التوقيع على حكم بالإعدام .. هل فهمتم ؟!

همهموا جميعًا بالموافقة ، وغمغم ذلك الذى يلعب دور الساقى الإسرائيلى :

ـ إننى أعتذر يا سيدى ، وأعد بألاّ أقع فى هذا الخطأ مرة ثانية قط .

أجابه ضابط المخابرات المصرى فى صرامة :

ـ لا اعتذارات هنا .. الاعتذار الوحيد هو إعادة الدورة بالكامل ، فالفشل يعنى أنك غير مؤهَّل إلى الحد الكافى .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ هيا .. عودوا إلى أعمالكم .

قال عبارته الأخيرة ، وانسحب من المكان فى هدوء ، وعاد الجميع يتابعون أحاديثهم وحواراتهم ، وكأن الدقائق الأخيرة لم يكن لها وجود ..

كانوا يتحدَّثون بالعبرية ، فى سلاسة مدهشة ، وحتى أحاديثهم ، كانت تدور فى معظمها حول قضايا داخلية ، تثير اهتمام رجال جيش الدفاع الإسرائيلى بالتحديد ، فى حين انهمك عدد محدود منهم فى مناقشة ما حدث ، وقالت فتاة ترتدى زى (رَق سمَّال) إسرائيلى (*) :

ـ المدرِّب على حق فيما فعل .. إننا لا نعبث هنا ، وهذه ليست تدريبات لمسرحية هزلية .. كلنا نعلم أن أدنى خطأ يحدث فى أرض العدو ، يكفى لكشف أمرنا ، ووقوعنا فى الأسر .

ثم انعقد حاجباها ، مستطردة فى حزم ، وهى تدير عينيها فى وجوه رفاقها :

(*) رق سمَّال : (رقيب أول) باللغة العبرية .

ـ وأنتم تعلمون ما يفعله الإسرائيليون بأسراهم .

أومأ بعضهم برأسه متفهمًا ، فى حين قال أحدهم فى سخط :

ـ لم يكن هذا ليحدث ، لولا أن استفزَّه ذلك الوافد الجديد .

اندفع آخر يسأل فى شغف :

ـ بمناسبة الحديث عن ذلك الوافد الجديد .. هل يعرف أحدكم اسمه ؟

تبادلوا نظرات حائرة متسائلة ، قبل أن تجيب فتاة أخرى :

ـ إنه لم يخبر أحدًا باسمه قط ، وهم لم يمنحوه حتى اسمًا كوديًا ، أو رقمًا يمكن أن نستدل به عليه .

اختلس أحدهم نظرة إلى الشاب ، الذى يتحدَّث مع الساقى فى هدوء ، وغمغم :

ـ لماذا يحيطونه بكل هذا القدر من السرية والغموض ؟! .. من هو بالضبط ؟

أجابته الفتاة الأولى فى حزم :

ـ ليس هذا من شأننا .

عادت إليها العيون ، بمزيج من الدهشة والاستنكار ، فتابعت بنفس اللهجة الحازمة :

ـ هل نسيتم ما تعلَّمنا ؟.. المعرفة قدر الحاجة .. لا تسأل عمَّا لم يخبروك به عن عمد .

تنهَّد آخر فى حنق ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنك تتحيزين لذلك الوافد الجديد ، على الرغم من أن استفزازه لزميلنا ، هو السبب فى وقوعه فى الخطأ .

قالت الفتاة فى حدة :

ـ وماذا لو أن هذا حدث فى (إسرائيل) نفسها ، وكان الذى استفزّه ضابط إسرائيلى حقيقى ؟

همّ أحد المحيطين بها بالتعليق على عبارتها ، لولا أن برز ضابط المخابرات ، المسئول عن التدريبات ، وأشار إلى ذلك الشاب ، الذى يتحدثون عنه ، وقال :

ـ أنت .. تعال هنا .

لم يحاول الشاب مناقشته ، وإنما اتجه إليه فى سرعة وصمت ، فهمس الضابط فى أذنه بعبارة قصيرة ، اعتدل الشاب بعدها ، وشدّ قامته ، ثم غادر المكان فى خطوات واسعة ، وكأنه فى طريقه للقاء بالغ الأهمية ..

وفى حزم ، قال الضابط :

ـ أعتقد أن هذا يكفى اليوم .

وفى اللحظة التى بدأ فيها الجميع يستعدون للانصراف ، كان الشاب يقفز داخل السيارة الجيب ، التى تشبه تمامًا السيارات العسكرية الإسرائيلية ، وينطلق بها عبر طرقات المكان ، حتى توقّف أمام مبنى منعزل ، من طابق واحد ، فغادر السيارة ، وطرق بابه فى هدوء ، وسمع صوتًا مألوفًا ، يقول :

ـ ادخل يا (فاى) (*) .

دفع الشاب الباب ، ودلف إلى المكان ، وارتفعت يده بالتحية العسكرية ، وهو يقول :

(*) راجع (كوكتيل ٢٠٠٠) العدد العشرون (البعث ، وقصص أخرى)

ـ فى خدمتك يا سيّدى .

رمقه رجل المخابرات المصرى (نسيم) بنظرة فاحصة ، قبل أن يسأله فى شىء من الحزم :

ـ كيف حال تدريباتك هنا ؟

أجابه الشاب فى هدوء واقتضاب :

ـ أعتقد أن كل شىء يسير على ما يرام .

مطّ (نسيم) شفتيه ، وهو يقول :

ـ ليس تمامًا ..

ثم التقط ملفًا كبيرًا ، وطالع صفحاته ، مستطردًا :

ـ تقاريرك كلها فوق المتوسّط ، بالنسبة لتدريبات المرحلة الأخيرة ، فأنت تتحدّث الآن الإنجليزية والفرنسية والعبرية ، ولكن ليس بالطلاقة المطلوبة ، ومازالت مهاراتك الكيميائية والفيزيائية دون المستوى ، ومدربوك يقولون إنك مرهق للغاية ، بالنسبة لاختبارات التنكر والتمويه .. الشىء الوحيد الذى تتفوّق فيه هو القتال اليدوى ، وإطلاق النار ، وأساليب الحرب التقليدية ، الذى اعتدت عليها فى ....

بتر عبارته بغتة ، عندما أدرك أنه كاد يكشف أمورًا لا ينبغى كشفها ، فانعقد حاجبا الشاب ، وهو يسأل :

ـ فى ماذا يا سيّدى ؟

أجابه (نسيم) فى صرامة :

ـ لا تسأل .

ثم عاد يضرب بيده على الملف ، مستطردًا :

ــ حاول أن تبذل جهدًا أكبر يا فتى .. هذا المستوى غير مقبول إطلاقًا .

قال الشاب فى شىء من التوتر :

ــ ولكننى أتفوّق على العديد من الدارسين يا سيّدى ، و ...

قاطعه (نسيم) فى غضب :

ــ وتتأخّر عن دارسين آخرين .. كلاّ يا (فاى) .. ليس هذا هو المستوى الذى أطمح إليه .. إننى أتولّى تدريبك بنفسى ، وأنا لا أفعل هذا إلا نادرًا ، ومع عناصر محدودة ، أستشفَ فيها التفوق والتميُّز .

وانعقد حاجباه فى صرامة شديدة ، مع استطرادته :

ــ انس كل من يعقبك ، وتطلَّع فقط إلى من يسبقونك ، وابذل المزيد من الجهد .. هل تفهم ؟ .. المزيد من الجهد .

صمت الشاب لحظة ، ثم أجاب :

ــ سأبذل قصارى جهدى يا سيّدى .

استعاد (نسيم) هدوءه فى سرعة ، وأومأ برأسه ، قائلاً :

ــ عظيم .. هذه هى الروح التى أنشدها .

ونهض يلتقط سترته ، مستطردًا :

ــ والآن إلى اللقاء .. سأتركك تتم تدريباتك هنا ، وأنطلق أنا إلى المطار ، فابنة أخى (وفاء) ستصل من (لندن) بعد ساعة ، والمفروض أن أستقبلها بنفسى .

حاول (فاى) أن يبتسم ، وهو يتمتم :

ــ أتمنى لها أن تصل بسلام يا سيّدى .

قالها ، دون أن يدرى أن الساعات التالية ، ستجعل هذا هو أمل الجميع ..

أن تصل الطائرة القادمة من (لندن) ..

وبسلام ..

* * *

« نحن نعبر البحر .. » .

انطلق ذلك الهتاف المفعم بالسعادة ، من بين شفتى صبى صغير ، وهو يتطلّع عبر نافذة الطائرة متهلّلاً ، فالتفتت إليه الشابة الجالسة إلى جواره ، وابتسمت فى حنان ، وهى تقول :

ــ نعم .. هذا هو البحر .. لقد تجاوزنا (أوروبا) (*) ، والطائرة تنطلق الآن نحو (القاهرة) .

التفت إليها الصبى ، وسألها فى اهتمام :

ــ هل تسافرين كثيرًا ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، متمتمة :

ــ هذا أمر طبيعى ، فأنا أدرس فى (لندن) ، وأسافر مرتين فى العام على الأقل .

مطّ شفتيه ، قائلاً :

(*) أوروبا : قارة مع جزرها ، مساحتها حوالى عشرة ملايين وثلاثمائة وستين ألف كيلو متر مربع ، يفصلها عن (آسيا) ، جبال (أورال) ، وبحر (قزوين) و (القوقاز) ، والبحر الأسود ، وعن (أفريقيا) ، البحر الأبيض المتوسّط ، ويحدّها شمالاً ، المحيط المتجمّد الشمالى ، وغربًا المحيط الأطلنطى ، وأكبر الجزر التابعة لها هى الجزيرة البريطانية .

- أما أنا ، فهى المرة الثانية ، التى أركب فيها طائرة ، على الرغم من أن أمى إنجليزية ووالدى مصرى ، والمرة الأولى هى التى أرسلانى فيها لزيارة جدتى ، وفى المرتين سافرت وحدى .

داعبت رأسه مرة أخرى ، وهى تقول :

- ولكن جدتك تحبك كثيرًا ، ولقد أوصتنى برعايتك والعناية بك ، حتى تصل إلى (القاهرة) .

تطلَّع إليها لحظة فى صمت ، ثم سألها :

- اسمك (وفاء) .. أليس كذلك ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وابتسمت وهى تسأله :

- هل يروق لك ؟

هتف فى حماس :

- إنه اسم جميل .. رفيقتى فى المدرسة اسمها (وفاء) أيضًا ، ولكنها لا تشبهك فهى ..

انتبه فجأة إلى شرودها ، فنقل عينيه إلى حيث تنظر ، ورأى رجلاً فى معطف داكن ، يسير عبر ممر الطائرة ، متجهًا نحو كابينة القيادة ، فسأل :

- آنسة (وفاء) .. ماذا يقلقك ؟

أشارت إلى ذلك الشخص فى شرود ، وهى تقول فى قلق واضح .

- لست أدرى يا (أحمد) .. هذا الرجل يثير فى نفسى بعض القلق ، كما لو أنه ..

قبل أن تتمَّ عبارتها ، كانت المضيفة تعترض مسيرة ذلك

الرجل ، قائلة بابتسامة هادئة :

- لا يوجد ما يهمك هنا يا سيِّدى .. دورات المياه فى الجانب الآخر ، و ..

هوى الرجل على وجهها بصفعة قوية مباغتة ، أزاحتها عن طريقه ، ثم وثب نحو كابينة القيادة ، واقتحمها وهو ينتزع من طيات معطفه مسدسًا ، ويهتف بقائد الطائرة ومساعديه :

- خط السير تغيَّر أيها السادة .

انطلقت صرخات الذعر من الركَّاب ، وهبَّ ثلاثة رجال من مقاعد مختلفة ، وانتزع كل منهم مسدسه ، وانطلق أحدهم نحو كابينة القيادة ، على نحو يوحى بأنه رجل أمن محترف ، ولكن شهقة عنيفة من خلفه أوقفته ، فالتفت يحدِّق فى زميله ، الذى ذبحه خنجر حاد بلا رحمة ، وفى نفس اللحظة اخترقت رصاصة رأس زميله الثانى ، ونسفته فى مشهد بشع ، فى حين سمع صوتًا من خلفه يقول :

- هذا عيبكم يا رجال الأمن .

حاول الرجل أن يستدير بسرعة ، ولكن نصل خنجر حادٍّ ، اخترق ظهره ، وبرز من صدره ، فى موضع القلب تمامًا ، فجحظت عيناه فى ألم ذاهل ، قبل أن يهوى جثة هامدة ، وسط موجة من الذعر سادت الطائرة ، وارتفع وسطها صوت صارم وحشى ، يقول :

- أوَّل من سيغادر مقعده منكم ، سيتلقَّى رصاصة فى رأسه .

انكمش الجميع فى مقاعدهم فى ارتياع ، وبدا لهم رجلان



هوى الرجل على وجهها بصفعة قوية مباغتة ، أزاحتها عن طريقه ، ثم وثب نحو كابينة القيادة ..

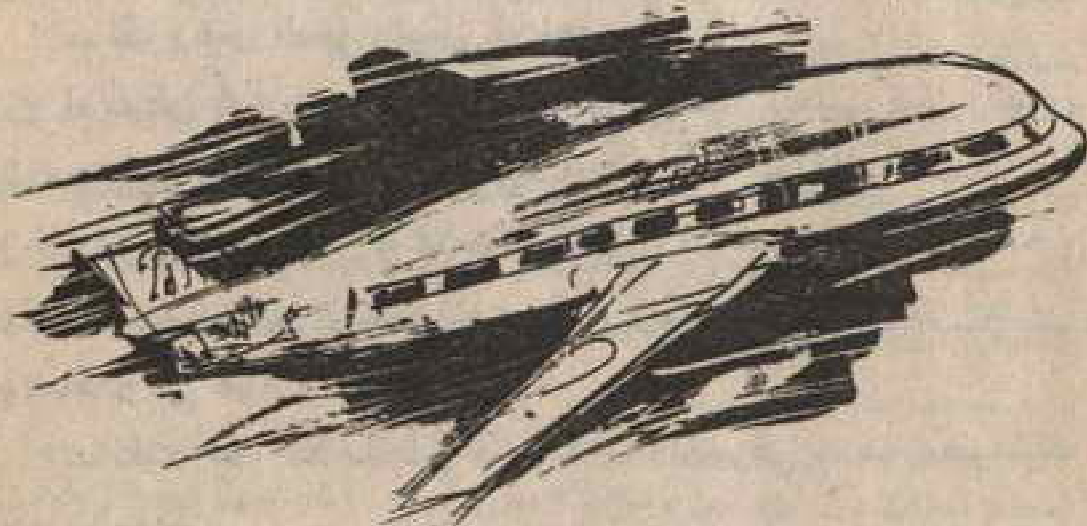
آخران ، يحمل كل منهما مدفعًا آليًا قصيرًا ، ويسيطر أولهما على مؤخرة الطائرة ، فى حين يحتلّ الثانى منتصفها ، أما زعيمهما ، الذى احتلّ كابينة القيادة ، فقد ارتفع صوته الخشن الساخر ، وهو يقول :

ــ انتهى الأمر أيها السادة .. الطائرة الآن تحت سيطرتنا ، ويؤسفنى أن أخبركم أنها لن تصل إلى (القاهرة) أبدًا .

قالها ، وعيناه تتألقان فى قوة ..

وفى وحشية .

* * *



٢ ـ الخطة ..

توقَّفت سيَّارة مدير المخابرات العامة المصرية ، أمام مبنى مجلس الوزراء ، وأسرع أحد رجال الأمن يستقبله فى لهفة ، وهو يقول :

ـ الجميع فى انتظارك يا سيِّدى .. السيِّد رئيس الوزراء ، ووزير الحربية ، وقائد القوات الجوية ، وسيصل سيادة الرئيس بنفسه بعد قليل .

عبر مدير المخابرات ساحة المبنى فى خطوات سريعة ، وقبل أن يستقل المصعد إلى حيث قاعة الاجتماعات ، سمع من خلفه أبواق الدرَّاجات الآلية ، وهى تقترب من المكان ، فتوقَّف مغمغمًا :

ـ لقد وصل السيِّد رئيس الجمهورية .

لم تمض ثوان معدودة ، على قوله هذا ، حتى كان رئيس الجمهورية يهبط من سيَّارته أمام البوَّابة الداخلية الكبيرة ، وغليونه بين شفتيه ، وعلامات القلق والاهتمام تملأ ملامحه ، ولم يكد يلمح مدير المخابرات ، حتى وضع عصاه تحت إبطه ، وصافحه فى حرارة ، قائلا :

ـ كنت أعلم أنك ستصل بسرعة .. أخبرنى .. ما معلوماتك حول الموقف .

أجابه مدير المخابرات ، وهو يدلف معه إلى المصعد :

ـ ما زالت معلوماتنا محدودة يا سيادة الرئيس .. كل ما نعلمه هو أن بعضهم اختطف طائرة (مصر للطيران) ، القادمة من

(لندن) ، وأجبروها على الهبوط فى مطار (نيقوسيا) فى (قبرص) (*) ، والمطلب الوحيد الذى تم التقدم به هو تزويد الطائرة بوقود كاف لرحلة طويلة ، دون تحديد الاتجاه .. ومازلنا نجهل حتى الآن عدد المختطفين ، وهويتهم ، ووجهتهم الحقيقية .

عقد الرئيس حاجبيه ، ونفث دخان غليونه فى توتر ، وهو يقول :

ـ معلومات قليلة يا مدير المخابرات .. قليلة للغاية .

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

ـ إننا نبذل قصارى جهدنا يا سيادة الرئيس .

مطَّ الرئيس شفتيه دون تعليق ، واتجه مع مدير المخابرات إلى قاعة الاجتماعات ، حيث استقبلهما رئيس الوزراء ، ووزير الحربية (**) ، وقائد القوات الجوية فى اهتمام بالغ ، وبدأت مناقشة الأمر على الفور ، وقال وزير الحربية :

ـ الأمور لم تتضح بعد يا سيادة الرئيس ، ولكننا أعددنا فرقة من رجال الصاعقة ، مؤهَّلة لمكافحة الإرهاب ، وهم على أتم الاستعداد للتحرُّك فورًا ، والسفر إلى (ليماسول) مباشرة ، لاقتحام الطائرة وتحرير الرهائن .

(*) قبرص : جمهورية ، جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، عاصمتها (نيقوسيا) ، ومعظم سكانها من اليونانيين ، مع قلة من الأتراك ، وهى سهل فسيح ، تخترق سلسلتان من الجبال ، منها جبل (أوليمبوس) ، ومن أهم ما تنتجه ، الكروم ، والقمح ، والزيتون ، والتبغ ، ويستخرج منها معدن النحاس بكثرة .

(**) تدور الأحداث فى منتصف السبعينات ، عندما كان لقب وزير الدفاع هو (وزير الحربية)

قال الرئيس فى بطء :

ـ هذا عمل بالغ الخطورة يا وزير الحربية ، ما دمنا نجهل عدد المختطفين ، ومواقعهم ، ومدى سيطرتهم على الطائرة ، ثم إننا نحتاج إلى موافقة السلطات القبرصية ، للقيام بهذا العمل على أرضهم .

أجاب رئيس الوزراء :

ـ لقد أجريت بعض الاتصالات ، بشأن هذه الموافقة ، ولكن القبرصيين يتحفظون كثيرًا فى منحنا مثل هذه الموافقة ، فهم يرفضون قيامنا بعمل عسكرى على أرضهم ، إلا أنهم يعملون فى الوقت ذاته على تعطيل عملية التزوُّد بالوقود بقدر إمكانهم ، حتى يمنحونا الفرصة لاتخاذ قرار أفضل .

قال قائد القوات الجوية فى حزم :

ـ يمكننا أن نسمح لهم بالإقلاع ، ثم نسيطر عليهم فى الجو ، باثنتين من طائراتنا المقاتلة ، ونمنعهم من الذهاب بعيدًا ، وبعدها نجبرهم على الهبوط حيثما نشاء .

هزَّ رئيس الجمهورية رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ هذا لا يحلّ المشكلة ، فأولئك الذين يختطفون الطائرات ، لا يتورعون لحظة عن ذبح كل من لديهم من رهائن ، إذا ما تعرَّضوا للخطر .

تردَّد رئيس الوزراء لحظة ، قبل أن يقول :

ـ لابد أن نضع فى اعتبارنا أن أية عملية سيكون لها حتمًا عدد من الضحايا .

أجابه رئيس الجمهورية فى حزم :

ـ لن نضحى بأولادنا بهذه البساطة يا رئيس الوزراء .

ثم التفت إلى مدير المخابرات ، واستطرد فى شىء من الحدة :

ـ ماذا لديك يا مدير المخابرات ؟! .. هل ستظلّ صامتًا هكذا ؟

استدار إليه مدير المخابرات ، وأجاب فى هدوء :

ـ الواقع يا سيادة الرئيس ، أننى أنتظر حضور أحد رجالى ، فهو متخصِّص فى مكافحة الإرهاب ، ثم إنه شخص غير تقليدى ، ولديه دائمًا وسائل غير تقليدية ، لمعالجة مثل هذه الأمور .

ازداد انعقاد حاجبى رئيس الجمهورية ، وراح ينفث دخان غليونه لحظات ، قبل أن يسأل مدير المخابرات :

ـ من هذا الشخص بالضبط ؟

أجابه المدير فى سرعة ، وكأنه كان ينتظر السؤال :

ـ (نسيم) يا سيادة الرئيس .. المقدّم (نسيم) ..

صمت الرئيس لحظات أخرى مفكرًا ، قبل أن يهتف :

ـ آه .. (نسيم) .. أليس هو ذلك الرجل الذى أحضر الجاسوس (باروف) من (عمان) ؟

ابتسم المدير ، قائلًا :

ـ بلى يا سيادة الرئيس .. إنه هو .

لم يكد ينطق عبارته ، حتى دلف رئيس الأمن إلى القاعة ، وهو يقول :

ـ المقدّم (نسيم) يطلب الإذن بالدخول يا سيادة الرئيس .

أشار إليه رئيس الجمهورية ، قائلًا :

ـ دعه يدخل .. هيا .

دخل (نسيم) القاعة فى خطوات سريعة ، والتوتر يغمر وجهه كله ، ويفصح عن نفسه فى نظراته وحركاته ، ولكنه تماسك بشدة ، وهو يؤدى التحية لرئيس الجمهورية ، الذى أشار إليه بالجلوس ، قائلا :

ـ اجلس يا (نسيم) .. رئيسك يقول : إنك الرجل المناسب لهذا الموقف ، وأرجو أن تثبت لنا هذا .. هل تعتقد أنك ستبذل قصارى جهدك فى هذه العملية ؟

أجابه (نسيم) فى اقتضاب ، وهو يتخذ مقعده :

ـ ليس لدى أدنى شك فى هذا .

لاحظ الرئيس ذلك التوتر الواضح فى صوت (نسيم) ، فتطلع إليه فى تساؤل ، جعل مدير المخابرات يندفع قائلا :

ـ ابنة شقيق (نسيم) بين الرهائن يا سيادة الرئيس .

رفع الرئيس حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ ابنة شقيقه .. ولكن هذا يفسد كل شىء .

انعقد حاجبا (نسيم) فى مزيد من التوتر ، والرئيس يتابع :

ـ وجود ابنة شقيقه بين الرهائن ، يجعله يضع خطته بشكل متوتر ، ويتحاشى كل ما يمكن أن يعرّضها للخطر ..

هزّ مدير المخابرات رأسه نفيا ، وهو يقول :

ـ ليس (نسيم) يا سيادة الرئيس .. إننى أضمن حياده ، مهما كانت الظروف ، وأراهن عليه بمنصبى وتاريخى كله .

نقل رئيس الجمهورية بصره بين (نسيم) ومديره لحظات ، قبل أن يقول فى حسم :

ـ على بركة الله .. دعونا نراجع خطتنا ثانية .

أعاد الجميع المناقشة كلها على مسامع (نسيم) الذى استمع إليهم فى صمت واهتمام كاملين ، حتى أنهى وزير الحربية حديثه قائلا :

ـ وما زلت أصرّ على رأيى يا سيادة الرئيس .. لن يمكننا تحرير الرهائن ، والسيطرة على الموقف ، إلا بعملية انتحارية ، لا يمكن توقُّعها قط .

أومأ الرئيس برأسه فى صمت ، وهو يحشو غليونه ، ثم التفت إلى (نسيم) ، قائلا :

ـ ما رأيك يا خبير مكافحة الإرهاب ؟

اعتدل (نسيم) ، وهو يقول :

ـ إننى أتفق مع رأى السيّد وزير الحربية يا سيادة الرئيس ، ولكن ..

بدا التوتر على ملامح الجميع ، وهم يتطلعون إليه ، عندما توقّف عند هذا القدر ، فالتقط نفسًا عميقًا ، وتابع فى حزم :

ـ ولكن مع تطوير هام وجوهرى .

سأله الرئيس :

ـ أى تطوير هذا ؟

مال نحوه (نسيم) ، وهو يقول :

ـ سنقوم بمهمة انتحارية ، ولكن بأسلوب عجيب ، لن يخطر ببال هؤلاء المختطفين قط ، هذا لأن خطتنا ستبدو جنونية .

قالها ، وراح يشرح خطته ..

ولقد كانت بالفعل خطة جنونية ..

جنونية للغاية ..

* * *

تفجَّرت الدموع من عينى (أحمد) ، وهو يهتف مذعورًا :

ـ لا أريد البقاء هنا .. أريد العودة إلى (القاهرة) .. أريد العودة إلى أبى وأمى .

اندفع نحوه أحد الإرهابيين الثلاثة ، وصرخ فى وجهه :



ـ اخرس أيها الصبى ، وإلا قطعت لسانك ، وشويته فى فرن الطائرة .

صرخ الصبى فى ارتياع ، وألقى نفسه بين ذراعى (وفاء) ، التى قالت فى حدة :

ـ إنك تخيف الصبى .

مال الإرهابى نحوها ، وقال فى غلظة وحشية :

ـ حقًّا ؟! .. يالك من غبية عطوف !.. ما رأيك لو انتزعت قلبك الحنون هذا ، وسلقته مع لسانه ؟!

ازدردت لعابها فى صعوبة ، وهى تغمغم :

ـ أنت متوحش .

تراجع مطلقًا ضحكة عالية ، وهو يقول فى شراسة :

ـ شكرًا لمجاملتك .. شكرًا كثيرًا .

أشعل الإرهابى الذى يقف عند باب كابينة القيادة المفتوح سيجارته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اصمت يا رجل .. ضحكاتك هذه تثير أعصابى .

أجابه الرجل فى حدة :

ـ كل شىء حولنا يثير أعصابى أيضًا .. لماذا تأخَّروا هكذا فى تزويدنا بذلك الوقود اللعين .

عقد زعيمه حاجبيه ، وهو يقول :

ـ إنهم يحاولون تعطيلنا لسبب ما .

هتف الثالث ، من مؤخرة الطائرة :

ـ هذا يعنى أنهم يصنعون خطة لاقتحام الطائرة .

أجابه الكابتن فى توتر :

ـ كلا .. عملية التزوّد بالوقود تحتاج عادة إلى وقت طويل ، وأنتم أعلنتم أنكم تريدون رحلة طويلة .. أليس كذلك ؟

التفت إليه الزعيم ، وقال فى صرامة :

ـ اصمت .. لم يطلب أحد رأيك .

قال الكابتن متوترا :

ــ ربما .. ولكن هذه الطائرة لن تحتمل رحلة طويلة .. إنها ليست مجهّزة لعبور المحيط مثلا .

قال الزعيم فى حدة :

ــ ليس هذا من شأنك .. اصمت أو يحلّ مساعدك محلك فى القيادة .. هل تفهم ما أعنيه بهذا ؟

ازدرد قائد الطائرة لعابه ، وهو يغمغم :

ــ نعم .. أفهم .

ولكنه أضاف فى عصبية :

ــ ولكننى لست أفهم ما تسعون إليه بالضبط .. إنكم لم تعلنوا أيّة مطالب ، ولم ..

هوى زعيم الإرهابيين على وجهه بكعب مسدسه ، صارخًا :

ــ قلت : اصمت .

تفجّرت الدماء من وجه قائد الطائرة ، وسقط إلى جوار مقعده فى ألم ، فهتفت المضيفة ، وهى تهرع إليه :

ــ لقد أصبته .

صرخ فيها الزعيم :

ــ لا تتحرّكى .. اتركيه هكذا . إنه يستحق هذا .

ثم التفت إلى مساعد القائد ، مستطردا فى شراسة :

ــ ستتولى القيادة ، كما لو أن القبطان قد أصيب بحادث طارئ .. هل تفهم ؟

أومأ المساعد برأسه إيجابا ، وهو يتطلّع إلى القبطان المصاب

فى قلق ، فأشار زعيم الإرهابيين إلى ضابط الاتصال ، قائلا :

ــ لقد تأخّروا فى عملية تموين الطائرة بالفعل .. اتصل بالبرج ، وأبلغهم أننا نرغب فى الإقلاع بعد نصف ساعة على الأكثر ، ولو لم يتمّ هذا ، سنبدأ فى قتل رهينة كل عشر دقائق ، حتى يتم الإقلاع .

انطلقت الصرخات داخل الطائرة ، وانكمش (أحمد) بين ذراعى (وفاء) ، وهو يصرخ :

ــ لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .

ولم تجب (وفاء) ..



لم تكن حتى قادرة على الإجابة ..

لقد كان قلبها يرتجف ..

ويرتجف ..

ويرتجف ..

* * *

تألّق البدر فى قلب السماء ، محاطا بملايين النجوم الساطعة ، فى مشهد رائع ، من إبداع الخالق (عزّ وجلّ) ، واسترخى (فاى) فى مقعد قيادة السيارة (الجيب) المكشوفة ، يتطلّع إليه فى صمت ، وقد أطلق العنان لأفكاره ، محاولا استرجاع شىء من

ذكرياته القديمة ، التى تصرّ على الاختباء خلف حاجز مظلم ، فى غياهب عقله ..

إنه لم يتذكّر بعد من يكون ..

لم يسترجع ذكرياته السابقة لعمله مع المقدّم (رفعت) ..

ولكن هناك مصابيح تتألّق أحيانًا فى ذاكرته المظلمة ..

مصابيح تشير إلى أنه كان ، فيما مضى أيضًا ، مقاتلاً ..

وكان يحارب الأعداء أنفسهم ..

ولكن متى ؟!..

وكيف ؟!..

كل هذا ما زال يقبع داخل الجزء المظلم من ذاكرته ..

ذلك الجزء الذى لم يمتدّ إليه ضوء المصابيح بعد ..

إنه لا يذكر حتى الاسم الذى كان يحمله ..

لا يذكر حرفًا واحدًا منه ..

إنه ..

قاطعه بغتة هدير مروحة هليوكوبتر تقترب ، وانتزعه من أفكاره وشروده ، فاعتدل يتطلّع إلى السماء ، ورأى الهليوكوبتر تعبر قرص القمر الفضى ، وتتجه نحوه مباشرة ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وراح يراقبها ببصره ، حتى استقرّت على مسافة أمتار قليلة منه ، ورأى قائدها يشير إليه ، هاتفًا :

ـ هيا يا فتى .. الأوامر تحتّم ألا نضيع لحظة واحدة .

ساله الشاب فى حذر ، وهو يتّجه إليه :

ـ هل تبحث عنى أنا ؟!

أجابه الطيّار فى توتر :

ـ بالتأكيد .. لقد اتصلت بقائد التدريب ، وأخبرنى أننى سأجدك هنا .. وهو يعلم أنك سترحل معى .. هيا .. أسرع ..

قفز (فاى) داخل الهليوكوبتر ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا الزى الذى أرتديه سيثير بعض المشكلات ، إنه زى (سيجين مشنى) إسرائيلى (*) ، والمفروض ألا أرتديه سوى هنا .

أشار الطيّار إلى حقيبة خلف مقعده ، قائلاً ، وهو يستعد للإقلاع :

ـ ستجد كل ما نحتاج إليه هنا ، ولكنك ستضطر لإبدال ثيابك داخل الهليوكوبتر ، فلدى أوامر مشدّدة بعدم إضاعة ثانية واحدة .. من الواضح أنهم يحتاجون إليك بشدة ، وبأسرع وقت ممكن .

أمسك الشاب يده فى صرامة ، وهو يقول :

ـ مهلاً .. قبل أن تقلع .. كيف لى أن أتأكّد من أن هذا الإجراء العجيب ، الذى لا يتفق مع القواعد العامة ، حدث بأمر من المسئولين بالفعل ، وأنها ليست خدعة بشكل ما .

ابتسم الطيّار ، وهو يقلع بالفعل ، ويناوله مظروف مغلق ، قائلاً :

ـ لقد توقّعوا سؤالك ، وطلبوا منى أن أعطيك هذا المظروف ، مؤكدين أنك ستفهم على الفور .

(*) سيجين مشنى : (ملازم) باللغة العبرية .

التقط الشاب المظروف ، وفتحه بسرعة ، والتقط منه ورقة مطوية ، فضها ليجد فى منتصفها رسما لشكل بيضاوى شبه مستدير ، يقطعه خط مستقيم ..

وكان هذا هو الرمز الذى يحمله ..

رمز (فاى) (*) .

وفى حماس ، طوى الشاب الورقة ، ودسها فى جيبه ، قائلا :

ــ انطلق يا رجل .. لن نضيع ثانية واحدة بإذن الله .

وانطلقت الهليوكوبتر ..

ودون أن تضيع ثانية واحدة ..

* * *

عندما هبط (فاى) من الهليوكوبتر ، فى أحد المطارات الحربية الصغيرة ، استقبله (نسيم) ، وهو يقول :

ــ مرحبًا يا فتى .. هيا .. الطائرة تنتظرنا .

أسرع (فاى) إلى جواره ، نحو طائرة حربية تستعد للإقلاع ، وهو يسأله :

ــ إلى أين سنذهب يا سيدى ؟

أجابه (نسيم) ، وهو يصعد معه إلى الطائرة .

ــ سأخبرك بكل شىء فى الطائرة يا فتى .. لا ينبغى أن نضيع لحظة واحدة ..

وعندما أقلعت الطائرة ، بعد لحظات معدودة ، كان (نسيم)

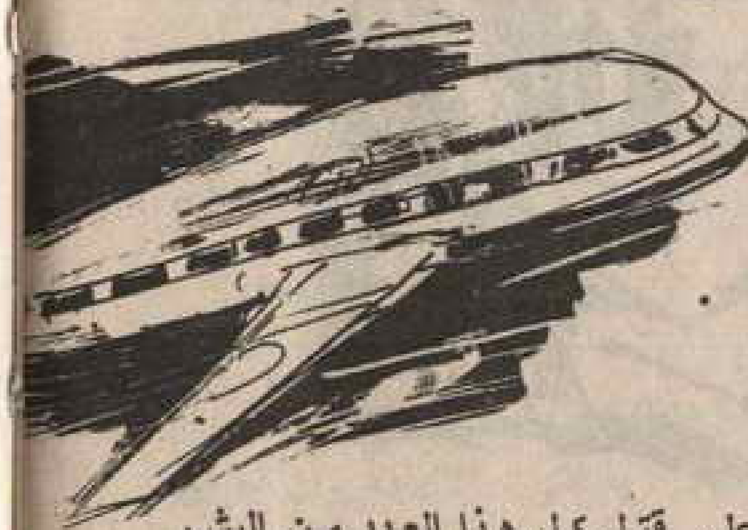
(*) (فاى) : رمز فى الرياضة الحديثة ، وهو يرمز إلى القيمة الخالية ، التى لا وجود لها والغرض منها هو ضبط المعادلات والنسب فحسب



عندما هبط (فاى) من الهليوكوبتر ، فى أحد المطارات الحربية الصغيرة ، استقبله (نسيم) ..

يشرح الموقف كله للشاب ، بكل تفاصيله المعروفة ، وأضاف :

ـ الشيء الوحيد ، الذى توصلنا إليه ، هو سبب اختطاف الطائرة ، ففى مخزن الحقائب والبضائع فيها ، عشرة صناديق ، تحوى عددًا من القطع الأثرية المصرية القديمة ، كانت تُعرض ، ولمدة شهر كامل فى (لندن) ، ومن الواضح أن هؤلاء المجرمين ارتكبوا عملية اختطاف الطائرة لهذا الغرض وحده ، خاصة وأنهم لم يعلنوا أية مطالب محدودة ، كما يحدث عادة فى حالات الاختطاف ، التى تقوم بها منظمات معروفة ، أو فئات ذات معتقدات خاصة .. وفى اعتقادنا أنهم سيستقلون الطائرة إلى منطقة تم إعداد مهبط عشوائى فيها ، وسيجبرونها على الهبوط هناك ، ثم يحصلون على القطع الأثرية ، التى تساوى ملايين الدولارات ، و ..



صمت لحظة ، ليزدرد لعابه المتوتر ، قبل أن يستطرد :

ـ وبعدها يقتلون الجميع .

انعقد حاجبا (فاى) فى شدة ، وهو يقول :

ـ هل تعتقد أنهم يجرؤن على قتل كل هذا العدد من البشر يا سيِّدى ؟

أومأ (نسيم) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ ليس لدى أدنى شك فى هذا ، فأمثالهم لن يتركوا كل هذا القدر من الشهود خلفهم .. أعتقد أنهم سيعمدون إلى نسف الطائرة بعد انصرافهم بالغنيمة .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، استعاد به سيطرته على أعصابه ، وأضاف فى حزم :

ـ ولقد درسنا كل الاحتمالات ، وانتهى بنا الأمر إلى الموافقة على القيام بعملية انتحارية ، لإنقاذ الرهائن ، والسيطرة على الموقف ، ولقد اقترحت أنا خطة جنونية ، أثارت استنكار الجميع ، فيما عدا السيِّد رئيس الجمهورية ، الذى هزّ رأسه لحظات ، ثم أعلن موافقته على الخطة ، على الرغم من جنونها ، مؤكدًا أنه يؤمن بأنها الوسيلة الوحيدة لمباغتة المختطفين ، وتحقيق النتيجة المنشودة ، على الرغم من خطورتها البالغة .

تطلَّع إليه الشاب فى تساؤل ، فاستطرد :

ـ إننا سنسمح للطائرة بالإقلاع ، بعد التزوُّد بالوقود .

تضاعف التساؤل فى عينى الشاب ، فالتقط (نسيم) نفسًا أكثر عمقًا ، قبل أن يتابع :

ـ وعندئذ سنقوم بعمليتنا الانتحارية .

والتفت يتطلَّع إلى الشاب ، قائلاً :

ـ عملية ستقوم بها وحدك .

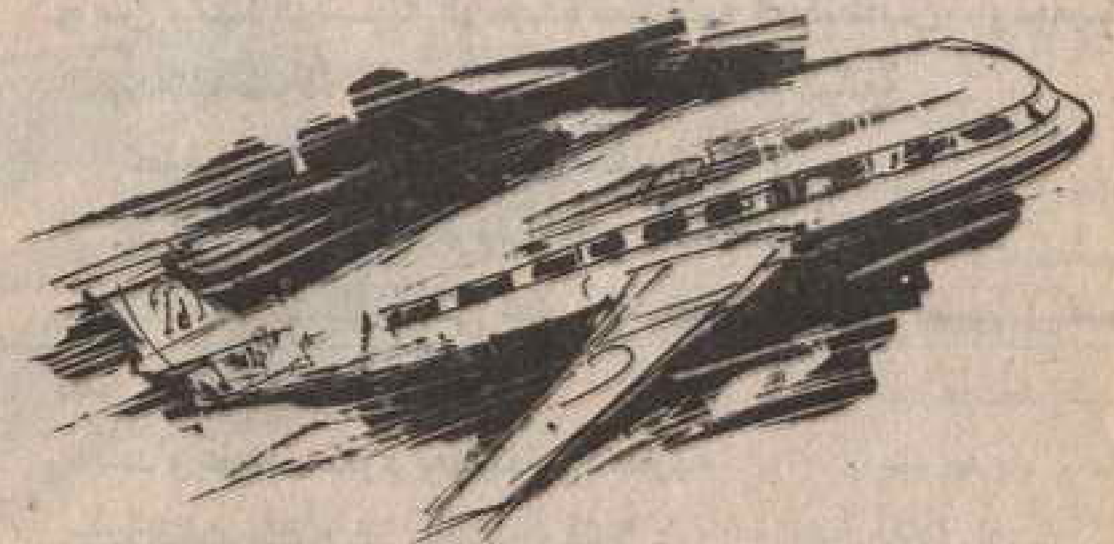
ارتفع حاجبا (فاى) فى دهشة ، و (نسيم) يضيف فى حزم شديد .

ــ عمليــة أطلقنا عليها اســم (النســر) .. (عمليــة النسر المنفرد) .

وتضاعفت دهشة (فاى) ، وهو يستمع إلى التفاصيل ..

تضاعفت ألف مرة .

* * *



٣ ــ النسر ..

ألقى زعيم الإرهابيين نظرة على ساعة يده ، وأشعل سيجارته فى هدوء ، وهو يقول :

ــ بقيت عشـر دقائق فحسب على الموعـد المحـدد .. دعونـا ننتق ضحيتنا الأولى ..

انطلقت صرخـات النسـاء ، وانهمـرت دموعهـن كالأمطـار ، وانكمش الجميع فى مقـاعدهم فـى ارتيـاع ، محـاولين الفـرار من عينى الزعيم ، اللتين دارتا فى الوجوه ، بحثًا عن ضحيته الأولى ، التى سيثبت بها جدية تهديده ..

وفى ارتياع ، صرخ (أحمد) :

ــ لا .. لا أريد أن أموت .. لا .

ضمته (وفاء) إلى صدرها محاولة تهدئته ، على الرغم من أن كل خلية فى جسدها ترتجف ذعرًا ، وهى تقول :

ــ اطمئن .. اطمئن يا (أحمد) .. لست أظن أن قلوب هؤلاء الوحوش تبلغ من القسوة ذلك الحد ، الذى يجعلهم يقتلون صبيًا مثلك ، بلا ذنب جناه .

ولكـن أحد الإرهـابيين الثلاثـة الدفـع نحوهـا ، وهـو يقـول فـى وحشية :

ــ أخالفك الرأى يا ذات القلب الحنون ، فالفكرة لا بأس بها .

ثم انتزع الصبى من بين ذراعيها فى شراسة ، جعلـت الصبى يصرخ فى ارتياع ، وجعلها تصيح :

ــ لا .. لن تأخذه .

صفعها الرجل فى قسوة ، صائحًا :

ــ اخرسى أيتها الحقيرة .. من سمح لك باتخاذ القرارات هنا .

انفطرت قلوب الجميع مع صراخ الصبى ووحشية الإرهابى ، ولكن زعيم الإرهابيين قال للرجل فى صرامة :

ــ اترك الصبى .

التفت إليه الرجل فى شراسة عصبية ، فكرّر :

ــ قلت : اترك الصبى .

زمجر الرجل فى غضب ، ثم دفع الصبى ، يعيده إلى مقعده ، قائلاً فى حدة :

ــ هل انتقلت إليك عدوى الشفقة والحنان ؟.. أنت تعلم جيدًا أن اختيار الصبى كضحية أولى ، يجعلهم يدركون كم نحن جادون فى قولنا .. أليس هذا أحد المبادئ التى تعلّمناها منك ؟.. أن نصدم المشاعر ، وبقسوة ، حتى يمكننا تحديد أهدافنا بأقصى سرعة ؟

نفث الزعيم دخان سيجارته ، وهو يبتسم فى برود ، قائلاً :

ــ ما زلت أنتهج السياسة نفسها يا رجل ، ولكننى أختلف معك فى اختيار أسلوب الصدمة فحسب .

هتف الرجل فى حدة :

ــ لا توجد صدمة أعنف من اختيار صبى مثله كضحية أولى .

قال الزعيم فى صرامة شديدة :

ــ قلت إننا لن نبدأ بالصبى .

همهم الرجل بكلمات ساخطة ، فاستطرد الزعيم فى جذل :

ــ سنبدأ بها .

قالها وهو يشير إلى تلك الفتاة ، التى انفجر قلبها من فرط الهلع والذعر والارتياع .. إلى (وفاء) ..

* * *

« لا يمكننى إجبارك على القيام بمهمة انتحارية كهذه يا (فاى) .. » .

نطق (نسيم) تلك العبارة فى حزم واضح ، داخل الطائرة الحربية ، التى تنطلق إلى (قبرص) ، وهو يتطلّع إلى وجه الشاب مباشرة ، قبل أن يستطرد :

ــ ولكن ما عرفته عنك ، وما نقله إلىّ مدرّبك الأوّل المقدّم (رفعت) من انطباعات (*) ، يجعلنى واثقًا من أنك لن ترفض المهمة .

صمت الشاب لحظة ، قبل أن يقول فى صوت قوى :

ــ أعلم أنها مهمة انتحارية تمامًا يا سيّدى ، ولكننى لن أتردّد لحظة واحدة فى قبولها ، ما دامت من أجلها .

وخفق صوته مع نبضاته ، وهو يضيف :

ــ من أجل (مصر) .

كانت هذه هى الكلمة السحرية ، التى تتفجّر لها كل خلية فى جسد الشاب بالحماس والقوة والعنفوان ..

(*) راجع (كوكتيل ٢٠٠٠) ، العدد العشرون (البعث ـ وقصص أخرى) ..

الكلمة التى يكفى ذكرها ، ليشحذ الشاب قواه وحواسه ، ولا يردد فى التضحية بحياته نفسها ، لو اقتضى الأمر من أجلها .. من أجل وطنه ..

(مصر) ..

وعلى الرغم من أن (نسيم) اعتاد إخفاء انفعالاته ومشاعره ، خلف قناع جليدى جامد ، وهو يتعامل مع تلامذته ومعاونيه ، إلا أن حاجباه ارتفعا فى تأثر هذه المرة ، ويده تربت على كتف الشاب ، مغمغمًا :

ـ (رفعت) كان على حق .. أنت شاب نادر فى هذا الزمن ..

صمت الشاب لحظة ، ثم سأل فى اهتمام :

ـ هناك نقطة تقلقنى يا سيدى .. كيف يمكننا تحديد وجهة الطائرة ؟

أجابه (نسيم) :

ـ ستتعقبهم مقاتلة قبرصية فور إقلاعهم ، وتبلغنا خط سير الطائرة أولاً فأولاً ، ثم إن برج المراقبة فى (نيقوسيا) سيبلغ الطيّار ، باستخدام شفرة خاصة ، بضرورة الانطلاق بسرعة بطيئة نسبيًا ، حتى يمكننا اللحاق بها ، و ..

والتقط نفسًا عميقًا كعادته ، قبل أن يربت على كتفه ثانية ، مستطردًا فى انفعال :

ـ وعندئذ يحين دورك يا بطل .

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وعقله كله يدرس تلك المهمة ، التى يستعد للقيام بها ..

المهمة الانتحارية ..

* * *

تألقت عينا زعيم المجرمين ، وهو يرفعهما عن ساعته ، قائلاً فى لهجة أقرب إلى الجذل :

ـ دقيقتان وتنتهى المهلة .

أطلق الإرهابى الثانى ضحكة مجلجلة ، وهو يجذب (وفاء) من شعرها فى قسوة ، هاتفًا :

ـ هيا يا نبع الحنان .. قولى وداعًا لهذا العالم ، الذى لم يقدّر عطفك السامى .

صرخت (وفاء) فى رعب ، وأصيب (أحمد) المسكين بحالة فزع هستيرية ، فراح ينتفض ويصرخ ، وهتف قائد الطائرة فى توتر وتهالك :

ـ هل يسعدكم تعذيب الفتيات والأطفال ؟

أشعل الزعيم سيجارة أخرى ، وهو يقول فى لا مبالاة :

ـ لا تلمنا على ما يحدث يا رجل .. وجّه اللوم إلى أولئك الرجال فى برج المراقبة ، فهم الذين تسببوا فى ضياع الوقت ، ولقد وعدت بقتل الرهينة الأولى ، بعد مضى نصف ساعة بالتحديد .

هتف مساعد الطيار فى عصبية :

ـ ولكنهم يملئون الخزّان بالوقود بالفعل .

نفث الزعيم دخان سيجارته ، وقلب كفيه فى استهتار ، وهو يقول :

ـ ولكنهم أضاعوا الوقت .. ما ذنبى إذن ؟

ثم أشار إلى الإرهابى الثانى ، الذى هتف فى جذل :

ـ نعم .. ما ذنبنا .

أغلقت (وفاء) عينيها فى رعب ، وغاص قلبها بين ضلوعها فى انهيار ، وشعرت بفوهة مدفع الإرهابى تلتصق بجانبها ، و ..

« قف .. » .

انطلقت صيحة مساعد القبطان تشقّ المكان ، قبل أن يستطرد بانفعال :

ــ البرجْ أبلغنا أن عملية التزوّد بالوقود قد انتهت ، وأنه يسمح لنا بالإقلاع ، قبل الوقت المحدود بنصف دقيقة .

هتف الإرهابى الذى يلصق فوهة مدفعه بجانب (وفاء) ، وهو يجذب إبرة ضرب النار فى شراسة :



ــ نصف دقيقةٌ لا تكفى .

هتف الكابتن فى ضعف ، موجهًا حديثه إلى الزعيم :

ــ قلت إنك تحترم كلمتك . أليس كذلك ؟

مطّ زعيم المجرمين شفتيه ، ونفث دخان سيجارته فى بطء ، ثم أشار إلى الإرهابىِ الآخر ، قائلاً :

ــ اخفض مدفعك .

هتف الإرهابى فى غضب :

ــ قلت : إننا سنبدأ بها .

صاحَ الزعيم فى وجهه ، وهو يصوِّب إليه مسدسه :

ــ نفّذ أوامرى دون مناقشة ، وإلا نسفت رأسك .

احتقن وجه الإرهابى لحظات ، قبل أن يخفض مدفعه ، مغمغمًا فى حنق :

ــ فليكن أيها الزعيم !.. فليكن .

ودفع (وفاء) فى قسوة ، ليلقيها فوق مقعدها ، وكأنما يحنقه أن منعه الزعيم من إراقة دمها ، فى حين بدأ مساعد الكابتن فى إدارة محركات الطائرة ، وهو يسأل :

ــ ما وجهتنا بالضبط ؟

أجابه الزعيم فى صرامة :

ــ لا تسأل .. انطلق فحسب .

قال المساعد فى عصبية :

ــ من المهم أن أعرف وجهتنا .. اتجاه الإقلاع يعتمد على هذا .

صرخ فيه الزعيم فى غضب صارم :

ــ لا تحاول خداعى يا هذا .. هيا .. انطلق ، وعندما نصبح فوق السحاب ، سأحدِّد لك وجهتنا بالضبط .

تبادل المساعد نظرة مع القائد ، ثم غمغم :

ــ فليكن ..

وانطلقت الطائرة فوق ممر الإقلاع لفترة من الوقت ، ثم حلّقت

عاليًا ، وارتفعت مبتعدة عن مطار (نيقوسيا) ، فى اتجاه الغرب ، وراحت ترتفع وترتفع ، حتى اختفت وسط السحاب ، وعندئذ ابتسم زعيم الإرهابيين فى ارتياح ، وهو يقول لمساعد القائد :

ـ والآن ، در نصف دورة ، وانطلق فى اتجاه الجنوب الشرقى .

سأله مساعد القائد فى اهتمام ، وهو يدور بالطائرة :

ـ وما وجهتنا بالضبط ؟

اندفع الزعيم إلى الأمام بحركة حادة ، وانتزع أسلاك جهاز اللاسلكى فى عنف ، فصاح القائد :

ـ ماذا تفعل أيها المجنون ، ما من مطار سيسمح لنا بالهبوط ، دون أن نحدّد له هويتنا لاسلكيًا .

ابتسم الزعيم ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا رجل .. المطار الذى سنتجه إليه ينتظرنا ، ويعلم من نحن مسبقًا .

أثارت كلماته ولهجته توتر مساعد القائد ، فعاد يسأله :

ـ ما وجهتنا بالضبط ؟

نفث الزعيم دخان سيجارته فى بطء واستمتاع ، ثم برقت عيناه ، وهو يجيب فى صوت عميق :

ـ (إسرائيل) .

وكانت المفاجأة مذهلة ..

* * *

انهمرت الأمطار فى غزارة ، على العاصمة البريطانية (لندن) ، على الرغم من الطقس الدافئ فى تلك الليلة ، وتحت المطر المنهمر ، اندفع رجل رياضى القوام ، نحو مدخل الطوارئ ، فى أحد المستشفيات الكبرى ، وهو يرتدى معطف مطر سميكا ، وقبعة من طراز انجليزى عتيق ، وقد بدا من ارتفاع ياقة معطفه ، وانخفاض حافة قبعته ، أنه يحاول جاهدًا حماية نفسه من الأمطار الغزيرة ، ولكن من المؤكد أن هذا أخفى ملامحه تمامًا ، وهو يعبر المدخل ، ويواصل طريقه بضعة أمتار أخرى ، ثم ينحرف يسارًا ، ويتلفّت حوله فى حذر ، قبل أن يدلف فى خطوة واسعة سريعة إلى دورة المياه ، وهناك انتزع قبعته ، وطواها بسرعة مدهشة ، على نحو يوحى بأنّها مجهّزة لهذا الغرض ، ووضعها فى جيب المعطف ، الذى انتزعه ، ونفض قطرات المياه العالقة به ، ثم قلبه على الوجه الآخر ، فبدا أبيض ناصعًا ، أشبه بمعاطف أطباء المستشفى ، وعلى صدره بطاقة من بطاقات الهوية المستخدمة فى المكان ، تحمل صورته ، مع اسم بريطانى ، يشير إلى أنه أحد الأطباء الجدد ، ومن الجيب الداخلى أخرج سمّاعة طبية ، علّقها حول عنقه ، وغادر دورة المياه فى هدوء ، واتخذ طريقه فى أروقة المستشفى الكبير ، ووجهه يحمل ابتسامة هادئة واثقة ..

وفى قسم الحالات الحرجة ، توقّف الرجل عند إحدى الحجرات ، وسمع الطبيب داخلها يقول لزميله :

ـ لقد نجا بمعجزة .. كلنا توقعنا أن يلفظ أنفاسه فى حجرة العمليات .. هل تعلم .. لقد أخرجنا ست رصاصات من جسده ..

اثنتان منها كانتا على بعد سنتيمتر أو يزيد عن حافة القلب ، والثالثة اخترقت عنقه ، ومزقت جزءًا من وريده العنقى ، والرابعة والخامسة غاصتا فى معدته ، أما السادسة ، فقد حطمت أحد ضلوعه ، قبل أن تستقر فى الرئة اليمنى .

أطلق الزميل صفيرًا قصيرًا ، قبل أن يلقى نظرة على المريض المسجى على الفراش ، ويغمغم :

ـ إنها معجزة بحق ..

ثم سأل فى اهتمام :

ـ ولكن أخبرنى .. هل تتوقعون نجاته بعد كل هذا ؟

تنهّد الطبيب الأوّل ، قائلاً :

ـ احتمال نجاته لا يتجاوز الخمسة فى المائة ، على الرغم من كل ما فعلناه معه ، ولكن من يدرى ؟

أومأ زميله برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. من يدرى ؟

وقفا يتبادلان حديثًا قصيرًا بعدها ، ثم غادرا الحجرة ، وتركا الممرضة وحدها فيها ، ولم يكد كلاهما يختفى فى نهاية الممر ، حتى دلف الرجل إلى الحجرة ذاتها ، وسأل الممرضة بانجليزية سليمة :

ـ كيف حال المريض ؟.. أنا الدكتور (ويليام) ، منتدب من الشركة من أجله .

نهضت الممرضة واقفة فى احترام ، مجيبة :

ـ لقد فحصه الدكتور (إدوارد) منذ لحظات ، و ..

قاطعها ملوّحًا بيده .

ـ لا بأس .. لا بأس .. سأعيد فحصه بنفسى .. الشركة التى يعمل بها تصرّ على هذا .. أحضرى حقيبة الفحص ، واتصلى بالدكتور (ألفريد) ، فى رقم (٩٧٦٥٧٨٣) ، وأخبريه أننى سأقوم بالفحص ، ولا داعى لحضوره .

أجابته فى احترام :

ـ كما تأمر يا دكتور .

وأسرعت تغادر الحجرة لتنفيذ ما طلبه ، ولم تكد تفعل ، حتى أغلق هو الباب فى سرعة ، ثم اقترب من المريض ، وداعب منطقة التقاء حاجبيه ، وهو يقول بالعربية ، وبلهجة مصرية خالصة :

ـ (عاطف) .. استيقظ يا (عاطف) .

كررّ العملية عدة مرات ، وهو يردّد العبارة نفسها ، فى صبر شديد ، حتى فتح المريض عينيه فى صعوبة ، وتمتم :

ـ من .. من أنت ؟

أجابه الرجل فى اهتمام :

ـ أنا (مجدى) .. زميل لك ، فى (م . ع . م) (*) .

ازدرد (عاطف) لعابه فى صعوبة ، وهو يهمس متهالكا :

ـ وكيف يمكننى أن أثق بهذا ؟

أجابه (مجدى) على الفور :

ـ هل سبق لك أن زرت برج (لندن) ؟

همس (عاطف) :

(*) (م . ع . م) : المخابرات العامة المصرية .

— بل زرت برج (إيفل) فحسب .

قال (مجدى) :

— لا بأس .. لو أنك زرت برجًا واحدًا ، فكأنك زرت الأبراج كلها .

كانت هذه هى عباراتُ السر المتفق عليها ، لذا فقد ابتسم (عاطف) فى وهن ، متمتمًا :

— حمدًا لله .. كنت أخشى أن أموت ، قبل أن ألتقى بأحدكم ..

أمسك (مجدى) يده فى رفق ، وهو يقول :

— اطمئن يا صديقى .. الوطن لن يتخلّى عنك أبدًا .. بعد لحظات ستأتى سيارة إسعاف خاصة ، بحجة نقلك إلى مستشفى آخر ، وستحملك مباشرة إلى المطار ، حيث تنتظرك طائرة طبية خاصة ، ستنقلك إلى الوطن ، مع كل الرعاية اللازمة .

أمسك (عاطف) معصم (مجدى) ، بكل ما تبقّى له من قوة ، وهو يقول :



— دعك من كل هذا الآن .. لست أظن أننى سأبقى ، حتى يتم كل هذا .. ولكن استمع إلىّ جيدًا ، فالأمر أخطر مما تتصوّر .

انعقد حاجبا (مجدى) ، وهو يسأله :

— ماذا هناك يا (عاطف) ؟

التقط (عاطف) أنفاسه فى صعوبة ، وبدا وكأنه يلهث ، وهو يقول :

— تلك الوثيقة ، التى أطلقوا النار علىّ من أجلها .. لقد حصلت عليها .. إنهم لم يسترجعوها بعد .. إنها وثيقة بالغة الخطورة .. وثيقة لن يتردّد الإسرائيليون فى نسف نصف (أوروبا) من أجل استرجاعها ، قبل أن تقع فى أيدينا .

سأله (مجدى) فى توتر شديد :

— وأين هذه الوثيقة ؟

كان صوت (عاطف) يتدهور فى سرعة ، ولكنه استنفر قواه كلها ، أو ما تبقّى منها ، وهو يقول :

— فى طريقها إلى (القاهرة) .. ولكنهم لم يمهلونى لأبلغ القيادة هناك .. استمع إلىّ بكل حواسك يا (مجدى) .. استمع جيدًا .

وبأنفاس متقطّعة ، وكلمات لاهثة ، راح (عاطف) يروى ما لديه ..

وكان ما يرويه مدهشًا ..

وخطيرًا ..

خطيرًا إلى أقصى حد .

* * *

٤ ـ السر ..

احتقن وجه مدير المخـابرات المصريـة ، وهو يطـالع البرقيـة السرية العاجلة ، التى وصلته من فورها من (لندن) ، ثم ناولهـا لرئيس الجمهورية ، قائلاً فى توتر بالغ :

ـ يبدو أننا أخطأنا تحديد الهدف يـا سيادة الرئيس .. هؤلاء الذين اختطفوا الطائرة ليسوا مجرَّد جماعة من المجرمين ، الأمر أخطر من هذا بكثير .

انعقـد حاجبـا رئيـس الجمهوريـة ، وهـو يلتقـط البرقيـة ، ويطالعها فى اهتمام ، فى حين سأل وزير الحربية فى قلق :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

أجابه مدير المخابرات فى انفعال :

ـ حـدث أن رجالى فى (لنـدن) كشفوا منذ دقـائق ، أن (الموساد) الإسرائيلى وراء عملية اختطاف الطائرة .

هتف رئيس الوزراء فى انزعاج :

ـ (الموساد) .. ولماذا يفعلون هذا ؟ .. إنه تحدٍّ سافر .

أجابه مدير المخابرات :

ـ إنهم لن يعلنوا هويتهم قط ، ولن تجد معهم دبوسًا يشير إليها ، وسيتبرأ (الموساد) من المختطفيـن رسميًا ، لـو استلزم الأمر .. إنها عملية عنيفة قذرة أيها السادة ، ولكـن الهدف الذى يسعى إليه الإسرائيليون خطير للغاية ، إلى الحد الذى دفع رجالهم لاختطاف الطائرة .

سأله رئيس الوزراء فى توتر :

ـ هل يرغبون فى سرقة الآثار ؟

هزَّ مدير المخابرات رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ بل الأمر أكثر خطورة بكثير ، والهدف الـذى يسعون خلفـه يساوى أضعاف ما تساويه الآثار ..

ثم اعتدل ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ دعونى أشرح لكم الأمر أيها السادة .. منـذ فترة ، راودنـا الشك فى وجود تعاون وثيق بين (إسرائيل) ودولة شرقية كبيرة ، بصورة تامة السـرية ، وبعد موافقـة السيد رئيس الجمهوريـة ، قررْنا القيام بعملية تابعة لجهاز المخابرات ، لكشف هذا التعاون ، وتحديد مداه ، ومدى خطورتـه بالنسبة لنـا ، خاصـة وأننـا نعتبر هذه الدولة الشرقية حليفًا وصديقًا هامًّا لنا .. وبعد عدة أشهر من العمل الشاق المتواصل ، نجح أحد رجالنا فى الحصول على وثيقة بالغة الخطورة والأهمية ، تحوى كل المعلومات المطلوبة ، ولكن الإسرائيليين كشفوا أمره ، وطـاردوه ، وأطلقـوا عليـه النـار ، وتصوَّرنا نحن أن هذا يعنى أنهم استعادوا الوثيقة .

وتنهَّد فى عمق ، قبل أن يضيف :

ـ ولكننا كنا على خطأ .

سأله قائد القوات الجوية فى اهتمام بالغ :

ـ أتعنى أنهم لم يستعيدوا الوثيقة بعد ؟

هزَّ مدير المخابرات رأسه نفيًا ، وقال :

ـ هذا صحيح .. لقد كـان رجلنا يعمل تحت تغطيـة مناسبـة ،

باعتباره أحد رجال الآثار ، المرافقين لآثار (توت ـ عنخ ـ آمون) (*) فى أثناء فترة عرضها فى (لندن) . وعندما شعر بالخطر ، بعد حصوله على الوثيقة ، قام بإخفائها داخل أحد صناديق الآثار ، اعتمادًا على الحراسة المكثفة ، التى ستحاط بها الآثار ، حتى يتم نقلها إلى الطائرة ، والتى ستمنع الإسرائيليين من الوصول إلى الوثيقة ، ولكن كان تقديره صحيحًا إلى حد ما ، فلم ينجح الإسرائيليون فى استعادة الوثيقة ، ولكنهم لم يستسلموا بسهولة ، وأعدوا خطة اختطاف الطائرة ، حتى يمكنهم استعادة وثيقتهم .

نفث رئيس الجمهورية دخان غليونه ، وهو يقول فى حزم :

ــ هذا يجعل وجهتهم واضحة .. إنم سيهبطون بطائرة ركاب كبيرة ، ولا يمكنهم أن يفعلوا هذا فى أية دولة .. إنهم سيهبطون حتمًا فى أرضهم .

ثم اعتدل فى صرامة ، مستطردًا :

ــ فى (إسرائيل) ..

اتسعت عينا رئيس الوزراء فى هلع ، وهتف وزير الحربية :

ــ ولكن لماذا طلبوا تزويد الطائرة بوقود يكفى لرحلة طويلة ؟

أجابه رئيس الجمهورية :

ــ التمويه .. محاولة التمويه على خط السير الفعلى .

ثم أومأ برأسه فى صمت ، قبل أن يتابع فى حسم :

(*) (توت ـ عنخ ـ آمون) ـ (١٣٦١ ــ ١٣٥٢ ق م) : ملك (مصر) ، من الأسرة الثامنة عشرة ، زوج ابنة (إخناتون) ، توّج فى مطلع العقد الثانى من عمره ، ومات دون العشرين ، تنصّل من ديانة (آتون) ، وعاد إلى (طيبة) والإله (آمون) ، وتم العثور على قبره سليمًا عام ١٩٢٢ م ، بكل كنوزه المعروضه الآن فى المتحف المصرى

ــ أعتقد أن هذا يبدل طبيعة المهمة تمامًا يا سادة .. الأمر لم يعد يقتصر على تحرير الرهائن ، واستعادة السيطرة على الطائرة .. بل أصبح هناك هدف آخر ، لا يقلّ أهمية وخطورة .. إنه ضرورة الحصول على تلك الوثيقة ، وإحضارها إلى هنا ، مهما كان الثمن .

وعاد ينفث دخان غليونه ، وهو يدير عينيه فى الحضور ، قبل أن يضيف فى حزم شديد :

ــ هل فهمتم ما أعنيه ؟! .. مهما كان الثمن ؟

وأصبح الأمر أكثر وضوحًا ..

وأكثر دقة ..

* * *

التقط (نسيم) إشارة طائرة المراقبة ، التى تتتبّع الطائرة المختطفة ، وأشار إلى (فاى) ، قائلاً :

ــ إنهم يتجهون إلى الجنوب الشرقى .. هذا أفضل بالتأكيد ، سنبلغهم بسرعة أكبر فى هذه الحالة .

ثم التفت إلى الشاب ، مستطردًا :

ــ هل انتهيت من ارتداء ثيابك ؟

أومأ الشاب برأسه ، مغمغمًا فى اقتضاب :

ــ نعم .

ألقى (نسيم) عليه نظرة فاحصة سريعة ، وجال بخاطره أنه لو رأى أى شخص آخر ما يرتديه أو يحمله الشاب ، لارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، أو لانفجر ضاحكًا فى حيرة وسخرية ..

لقد كان الشاب يرتدى زى القفز بالمظلات ، ويحمل على ظهره حقيبة المظلة ، ولكن معصميه وركبتيه حملت شفاطات قوية ، فى حين تعلّق فى حزامه حبل طويل ، ينتهى طرفه ببندقية صيد مائية ، ذات رمح قوى ، وعلى صدره اسطوانة أكسجين صغيرة ..

وكان من المدهش حقًا أن تجتمع كل هذه الأشياء معًا ..

ولكن (نسيم) كان يعلم أنها كلها ضرورية ..

ضرورية للغاية ..

وفى اهتمام ، قال للشاب :

ــ العمل الذى ستقوم به ليس سهلاً أو بسيطًا ، ومن المؤكّد أن العديدين يحجمون عن القيام به ، أو حتى مجرّد التفكير فيه ، ولكننى أعلم أنك مؤهّل له .

غمغم الشاب :

ــ أشكرك يا سيّدى .

هزّ (نسيم) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ــ لست أجاملك يا فتى ، فلا مجال للمجاملة فى عالمنا كما تعلم .. لقد أشرفت على جزء كبير من تدريباتك بنفسى ، والواقع أنك تذكّرنى بأيام شبابى ، وهذا ما يجعلنى أثق بك كثيرًا .

ابتسم الشاب ، وهو يقول :

ــ لقد سمعت الكثير عن العمليات الفذّة ، التى قمت بها يا سيّدى ..

لوّح (نسيم) بذراعه ، قائلاً :

ــ كان هذا منذ فترة طويلة .

ثم وضع يده على كتف الشاب ، مستطردًا :

ــ ولكن ما ستفعله أنت بإذن الله ، يفوق كل هذا .

انفرجت شفتا الشاب ، وهمّ بقول شىء ما ، ولكن الطيّار قال فجأة :

ــ إشارة عاجلة يا سيادة المقدّم ، على الخط السرى المأمون .

انعقد حاجبا (نسيم) ، وقفز يلتقط مسماع اللاسلكى ، ويضعه على أذنيه ، وهو يقول عبر البوق الصغير :

ــ هنا المقدّم (نسيم) .

وازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدّثه فى اهتمام بالغ ، قبل أن ينهى المحادثة ، ويقول للطيّار فى حزم :

ــ انطلق يا رجل فى اتجاه الشرق ، بزاوية ست وثلاثين درجة ، وارتفع إلى أقصى ما يمكنك بلوغه .

ثم التفت إلى الشاب ، مستطردًا :

ــ لقد تغيّرت طبيعة المهمة تغيّرت تمامًا .

* * *

ارتسمت ابتسامة متلذّذة على شفتى زعيم المختطفين ، وهو يدير عينيه فى الوجوه المذعورة داخل الطائرة ، وأشعل سيجارته فى استمتاع ، وهو ينفث دخانها نحو فوهة مسدسه المتحفّز ، وأسرع إليه أحد الرجلين ، قائلاً فى اهتمام :

ــ هذه الطائرة لها مدخل يقود إلى مخزن الحقائب .

انعقد حاجبا الزعيم ، والتفت إلى مساعد القائد ، وصوّب إليه

مسدسه ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ لماذا لم تخبرنى بهذا ؟

أجابه المساعد فى توتر :

ـ أنت لم تسأل .

مطَّ الزعيم شفتيه ، وقال :

ـ وهل يتم فتح هذا المدخل من هنا ، مثل الباب الخارجى ؟

أجابه المساعد :

ـ نعم .. لقد منعتنا من فتح مخزن الحقائب ، عندما كنا فى مطار (قبرص) ، فلم أتصوَّر أن ..

قاطعه الزعيم فى صرامة :

ـ فليكن .. افتح المدخل الداخلى الآن .

ضغط المساعد أحد الأزرار أمامه ، وقال :

ـ ها هو ذا .

التفت الزعيم إلى الإرهابى الآخر ، قائلاً :

ـ خذ موقعى ، وسأهبط للبحث عما أتينا من أجله .

قال الرجل فى شىء من الجذل ، وهو يلوِّح بمسدسه :

ـ على الرحب والسعة .

اتجه الزعيم فى خطوات واسعة إلى مؤخرة الطائرة ، حيث مدخل المخزن الداخلى ، وهبط إلى مخزن الحقائب والبضائع ، وتوقَّف أمام الصناديق الكبيرة ، التى تحمل الآثار المصرية القديمة ، وابتسم مغمغمًا :

ـ عظيم .. يبدو أن مهمتنا ستنجح بأسرع مما توقَّعنا .

والتقط عتلة معدنية ، وراح يكسر أغطية الصناديق الخشبية ، ويبحث فى اهتمام عن الهدف الرئيسى عن عملية الاختطاف كلها .. عن الوثيقة ..

الوثيقة الإسرائيلية ..

* * *

« هذه هى حقيقة الأمر إذن !.. » .

غمغم الشاب بهذه العبارة فى خفوت ، عندما شرح له (نسيم) الموقف كله ، فاعتدل هذا الأخير ، وهو يسأله :

ـ هل يغيِّر هذا من الأمر شيئًا بالنسبة لك ؟

أجابه الشاب فى حزم :

ـ بالتأكيد .

تراجع (نسيم) فى دهشة ، هاتفًا :

ـ ماذا ؟

استدرك الشاب فى سرعة :

ـ إنه يجعلنى أكثر إصرارًا على النجاح فى المهمة .

ابتسم (نسيم) فى ارتياح ، وهو يقول :

ـ ألم أقل لك إنك تذكرنى بأيام شبابى ؟

ثم اعتدل فى حزم ، مستطردًا :

ـ والآن لقد علمنا الوجهة التى تتخذها الطائرة ، وعلينا أن نلتقى بها قبل أن تبلغها .. هل تحب أن نراجع الخطة مرة أخرى ؟

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، ففرد (نسيم) أمامه رسمًا تخطيطيًا للطائرة ، وهو يقول :



وراح يكسر أغطية الصناديق الخشبية ، ويبحث فى اهتمام عن الهدف الرئيسى من عملية الاختطاف كلها ..

ـ هذا هو المدخل الوحيد ، الذى يمكنك أن تصل من خلاله إلى داخل الطائرة .. إنها منطقة هبوط الإطارات .. الجهاز الذى معك سيساعدك على فتح باب الإطارات ، وعبره ستتسلل إلى مجموعة التروس ، التى ستقودك إلى أنبوب العادم ، سر بمجاذاته وستجد فتحة الطوارئ ، ومنها ستقتحم الطائرة من الداخل .

ثم تنهّد قبل أن يستطرد :

ـ وانتبه جيدًا إلى أن كل ما سنعتمد عليه هو عامل المفاجأة .. لا أحد سيتوقّع ظهورك فى هذه اللحظة .. إنهم يشعرون الآن بالثقة والقوة ، بعد أن أقلعت بهم الطائرة من (ليماسول) فى سلام ، واتخذت طريقها إلى (إسرائيل) ، وبعد نصف ساعة ، سيدخلون مجالها الجوى ، لذا فمن المفروض أن تنتهى مهمتك كلها ، قبل هذا الوقت .

غمغم الشاب :

ـ سأبذل قصارى جهدى يا سيّدى .

تابع (نسيم) :

ـ النقطة الأكثر خطورة هى أننا نجهل عدد المختطفين ومواقعهم ، ولن يمكنك كشف هذا إلا بعد الاقتحام الفعلى ، وعندئذ سيكون عليك أن تتعامل معهم وفقا للظروف .

أومأ الشاب برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ أعلم هذا يا سيّدى .

صمت (نسيم) لحظات ، وهو يتطلّع إلى وجه الشاب الهادئ ،

محاولا إخفاء انفعاله وتأثُّره ، ثم لم يلبث أن ربَّت على كتفه ، قائلاً :

ــ وفَّقك الله يا فتى .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى قال الطيَّار :

ــ نحن نحلِّق فوق الطائرة .

سرى الانفعال فى جسد (نسيم) ، وهتف :

ــ هيَّا .. استعد يا بطل .. حانت اللحظة الحاسمة .

نهض (فاى) فى حزم ، وأمسك بندقية الصيد فى قوة ، وانفتح باب جانبى للطائرة ، فوضع الشاب قناع أكسجين صغيرًا على وجهه ، و (نسيم) يهتف :

ــ لا تقفز إلا عند سماع الإشارة .

مضت الثوانى فى بطء رهيب ، قبل أن يهتف الطيَّار :

ــ الآن .

وبلا ذرة من التردّد ، وثب الشاب من الطائرة ..

ومن بعيد ، لاحت له الطائرة المختطفة ، وهى تواصل سيرها ، وجسده يهوى فى الفضاء بأقصى سرعة ، وعقله يعمل كألف كمبيوتر ، استعدادًا لتنفيذ العملية التى أُسندت إليه ..

العملية الانتحارية ..

أخطر عملية انتحارية فى التاريخ .

* * *

٥ ــ الانتحارى ..

انتفض جسد طيَّار المقاتلة المصرية ، وسرت فيه قشعريرة باردة ، عندما قفز الشاب من الطائرة بلا تردُّد ، فهتف بصوت يغلب عليه الانفعال :

ــ ربَّاه !.. إنه لم يتردَّد لحظة واحدة .. هذا الشاب انتحارى حقيقى .

تمتم (نسيم) :

ــ بل هو مصرى حقيقى .

قال الطيَّار فى شىء من التوتر :

ــ معذرةً يا سيادة المقدَّم ، ولكن هذه الخطة تبدو لى جنونية للغاية !.. إنكم تطلبون من هذا الشاب أن يقفز من هذا الارتفاع الشاهق ، وألاَّ يستخدم مظلته ، بل يُحلِّق فى السماء كطير كاسر ، ويتحكَّم فى اتجاه جسمه فى براعة ، ليلتقى بالطائرة المخطوفة ، ويتعلَّق بها ، وهى تنطلق بسرعتها الكبيرة ، ثم يقتحمها من باب الإطارات ، ليهاجم عددًا تجهلونه من المختطفين ، ويحرر الطائرة .

أومأ (نسيم) برأسه موافقًا فى توتر ، وقال :

ــ لست أنكر أنها خطة انتحارية مجنونة ، ولكن هذا فى رأيى ما يضمن لها النجاح ؛ فلا أحد يتوقَّع مثل هذا الهجوم الانتحارى .

قال الطيَّار :

ــ هذا لو نجح .

صمت (نسيم) لحظة ، ثم قال :

ــ سينجح يا رجل .. سينجح بإذن الله .. فهذا الشاب الفذ ، الذى رأيته يقفز فى الفضاء أمامك ، منذ لحظات معدودة ، هو النسر الذى اقتبسنا منه اسم العملية ..

وعاد إلى صمته لحظة أخرى ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ــ النسر المنفرد .

* * *

سبح جسم الشاب فى الهواء ، وهو يهبط بسرعة مدهشة ، ويبذل قصارى جهده وخبرته ، حتى يتحكم فى اتجاه جسده ، ويلتقى بالطائرة ..

كانت المرة الأولى ، التى يقفز فيها من هذا الارتفاع الشاهق ، حيث تقل نسبة الأكسجين إلى حد مخيف ، وينخفض الضغط الجوى كثيرًا ..

ولكن القواعد نفسها كانت تسرى على حركته ..

عندما يهبط موازيًا للأرض ، ويستقبل الهواء بصدره وبطنه ، تنخفض سرعة هبوطه ، ويهبط رأسيًا ..

أما عندما يميل جسده إلى أحد الجانبين ، فإن هذا يدفعه يمينًا أو يسارًا ..

وعندما يستقبل الهواء برأسه ، تزداد سرعة هبوطه ، ويتجه إلى أسفل ..

وهذا ما يتعلمونه فى تدريبات القفز ..

وما برع فيه ، وبزّ أقرانه ..

وبكل براعته وخبرته ، اتجه بجسده نحو الطائرة ، التى تشق طريقها فى الهواء ، متجهة نحو الجنوب الشرقى ..

نحو (إسرائيل) ..

وبسرعة مذهلة ، راح عقله يسترجع تفاصيل الخطة ..

أخطر ما فى الأمر هو التوقيت ..

على الرغم من سرعة الهبوط المدهشة ، كان عليه أن يتحرك بدقة شديدة ، وأن ينفذ كل خطوة فى موعدها تمامًا ..

وهذا يحتاج إلى ذهن صاف ..

وإلى أعصاب من فولاذ ..

واقتربت الطائرة ..

اقتربت بسرعة مذهلة ..

وهوى جسده ..

وهوى ..

وهوى ..

ثم أصمّ الهدير القوى أذنيه ، والطائرة تلتقى به فى الهواء ..

وتقاطع مسار هبوطه ، مع خط سير الطائرة لحظة ، قبل أن تجتذبه قوة الاندفاع نحو جناحها فى عنف ، كآلة شفط هائلة ..

وعندئذ ، أطلق بندقية الصيد ..

وانطلق الرمح القوى نحو جسم الطائرة ..

ولوهلة ، خيّل إليه أن الرمح لم يصب الهدف ، وأنه سيواصل طريقه فى الهواء ، وهو يجذب خلفه لفة الحبال الكبيرة ، المعلقة فى حزامه ..



ضغط الهواء يدفعه بعيدًا ، وعضلاته الفولاذية تقاومه بكل قوتها ، وتحركه نحو جسم الطائرة ..

ولكن الرمح أصاب الهدف ..

مع انحراف بسيط ..

كان المفروض أن ينغرس في جسم الطائرة ، إلا أنه انزلق فوقه ، وانغرس أسفل الجناح الأيسر ..

ومع سرعة الطائرة الفائقة ، انجذب جسد (فاى) فى عنف ، وراح ينطلق فى الهواء ، معلقًا بجناح الطائرة ..

وكان مشهدًا رهيبًا بحق ..

طائرة ركّاب ضخمة ، تحلّق فى الهواء ، تحت ضوء القمر ، ويتدلّى من جناحها حبل طويل ، فى نهايته رجل يندفع بنفس سرعة الطائرة ، وعلى وجهه قناع أكسجين صغير ..

ولثوان ، دار رأس الشاب فى شدة ، مع التغيير المباغت فى السرعة ، وكاد يفقد وعيه ، ولكنه استجمع إرادته كلها ، ليسيطر على ذلك الدوار العنيف ، الذى أحاط به ، حتى اكتسب جسده سرعة الطائرة ، وتكيّف معها ، وبدأ يستعيد سيطرته على نفسه ..

كان الهواء مثلّجًا ، تكاد تتجمّد له أطرافه ، ولكنه تجاهله ، وتشبّث بالحبل بكل قوته ، وراح يجذبه بعضلاته القوية ، محاولا الوصول إلى جسم الطائرة ..

ولم يكن هذا بالعمل السهل ..

ضغط الهواء يدفعه بعيدًا ، وعضلاته الفولاذية تقاومه بكل قوتها ، وتحرّكه نحو جسم الطائرة بشكل بطيء للغاية ، ومرهق إلى حد مخيف ..

ولكنه قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

كان أكثر ما يميّزه هو تلك الإرادة الصلبة ، التى تتحدَّى بقوتها الفولاذ ، وبصلابتها الصلب نفسه ..

وأخيرًا بلغ جسم الطائرة ، وهو يلهث بشدة ، ويكاد يتحوَّل إلى كتلة من الثلج بلا حياة ، فألصق الشفاطات المثبتة بذراعيه وركبتيه بجسم الطائرة ، وأخذ يلتقط أنفاسه فى صعوبة ، على الرغم من قناع الأكسجين الذى يملأ وجهه كله .

وبعد استراحة دامت ثلاث دقائق ..

لو أنه من المنطقى أنه نطلق على وضعه هذا اسم (استراحة) ..

بدأ يتحرك على جسم الطائرة ، مستعينًا بالشفاطات القوية ، ليلصق جسده به ، حتى بلغ مدخل إطارات الطائرة ..

وفى سرعة ، وباستخدام الجهاز الذى منحوه إياه ، بدأ يفتح المدخل ، حتى يدلف منه إلى جسم الطائرة ، و ..

وفجأة ، أفلت الجهاز من بين أصابعه المتجمِّدة ..

وهوى من حالق ..

ومع سقوطه ، سقط قلب الشاب بين قدميه ..

لقد فقد وسيلة الدخول إلى قلب الطائرة ..

فقدها قبل أن تبدأ الخطة ..

الخطة الفعلية ..

* * *

« هل نقوم بدورة أخرى ؟ » .

ألقى قائد الطائرة الحربية المصرية السؤال ، وهو يختلس نظرة إلى (نسيم) ، الذى تصاعد توتره كثيرًا ، مع تطلعاته المستمرة لساعته ، وبدا عليه الانشغال بشدة ، حتى أنه لم يسمع السؤال ، فهتف الطيَّار .

— سيادة المقدَّم .. هل نقوم بدورة أخرى ؟

التفت إليه (نسيم) بحركة حادة ، وكأنما يستيقظ من حلم عميق ، وهتف :

— بالطبع .

ثم تمالك أعصابه ، واستردَّ جأشه ، وهو يستطرد :

— المفروض أنه الآن داخل الطائرة .. قم بدورة إضافية ، ربما أصيب جهاز اللاسلكى معه بعطب ما .

بدأ الطيَّار دورته ، وهو يقول :

— فليكن .. ولكنها آخر دورة يمكننا القيام بها ، فبعدها سندخل المجال الجوِّى الإسرائيلى (*) ولن يصبح بوسعنا تتبُّع الطائرة .

توتر صوت (نسيم) أكثر ، وهو يقول :

— فليكن .. فليكن .. سنقوم بهذه الدورة الأخيرة ، ثم نعود إلى الوطن .

(*) المجال الجوِّى : هو الجزء من الفضاء ، الموازى لحدود أية دولة ، والقانون الدولى يعتبره ضمن نطاق سيادة الدولة ، ومن غير المسموح لأية طائرات اختراقه ، دون الحصول على تصريح أو إذن مسبق ، فيما عدا حالات الحرب الفعلية .

قالها وهو يتساءل فى أعماقه : لماذا تأخَّر (فاى) فى إعلان وصوله إلى الطائرة ؟! ..

ولماذا لم يعلن أنه فشل فى هذا ، وهبط بالمظلة إلى البحر ؟..

ما الذى حدث بالضبط ؟!..

ما الذى حدث ؟!..

وراح السؤال يتكرَّر فى أعماقه بلا انقطاع ..

وبلا جواب ..

* * *

خفق قلب الشاب فى عنف ، عندما سقط منه الجهاز الخاص بفتح باب إطارات الهبوط ، وغمغم :

ـ بداية غير موفَّقة ..

كان يحتفظ بالكثير من هدوء أعصابه ، على الرغم من دقة موقفه ..

وهذا واحد من أكبر مميزاته ..

إنه معلَّق بجسم طائرة ، تنطلق على ارتفاع كبير ، وقد فقد وسيلةَ الدخول إليها ، وعلى الرغم من هذا فهو رابط الجأش ، متمالك الحواس ، وعقله يعمل فى سرعة خرافية ، للبحث عن حل لأزمته ..

وفى حزم ، استلَّ خنجره ، وراح يحلّ بنصله المسامير القوية ، التى تثبت الباب ..

ولم يكن هذا أيضًا بالعمل السهل ..

لقد كانت المسامير قوية للغاية ، وتحتاج منه إلى جهد عنيف ،

وهو يحلّها واحدًا بعد الآخر ، وعيناه تنتقلان بينها وبين ساعته ، التى تشير إلى أن الوقت يمضى فى سرعة مخيفة ..

مخيفة للغاية ..

ولكن لكل شىء نهاية ..

أخيرًا انتزع المسمار الأخير ، وأفلت الباب من مكانه ، وتهاوى فى الهواء ، فدفع الشاب جسده داخل منطقة إطارات الهبوط ، وراح يلهث فى قوة ، متمتمًا :

ـ أخيرًا .

ثم التقط جهاز اللاسلكى ، وضغط زره ، قائلاً :

ـ النسر فى العش .

كانت عبارة مقتضبة للغاية ، ولكنها جعلت قلب (نسيم) يثب من بين ضلوعه ، ويرقص طربًا ، حتى أنه تخلّى عن رصانته المعهودة ، وصرخ :

ـ لقد فعلها .. فعلها ذلك الشاب المدهش .. فعلها .

وفى لهفة ، اختطف جهاز الاتصال اللاسلكى ، وصاح عبر الموجة السرية المأمونة :

ـ لقد فعلها .. إنه الآن داخل الطائرة .

تلقَّى الرئيس (السادات) الهتاف ، عبر جهاز الاتصال الفائق ، وهو يجلس فى قاعة هيئة الأمن القومى ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهزَّ رأسه فى سعادة وارتياح ، فى حين هتف رئيس الوزراء :

ـ رائع .. هذا الفتى رائع .

وتراجع وزير الحربية فى مقعده ، وهو يطلق زفرة ارتياح كبيرة ، فى حين اعتدل قائد القوات الجوية ، وهو يقول :

ــ عظيم ، ولكن أتعشم أن يتم مهمته بسرعة .

قال الرئيس مبتسمًا :

ــ لقد قطع الشوط الأعظم .. من كان يصدق أنه سيفعل ما فعله !! .. إننا لو أعلنا هذا ، فلن يصدقه أحد .. شاب يقفز من طائرة إلى أخرى !!.. هذا أشبه بأفلام الحركة الأمريكية .

ثم عاد يهز رأسه فى سعادة ، وحشا غليونه ، قبل أن يضيف :

ــ كنت أعلم أن أولادى يستطيعون تحطيم المستحيل !

قال قائد القوات الجوية فى قلق واضح :

ــ أعترف أن الشاب حقق إنجازًا مذهلا ، بأى مقياس عملى يا سيادة الرئيس ، ولكن السرعة أصبحت هى العامل الأكثر خطورة الآن ، فلو لم يتمّ الشاب المهمة ، ويستعيد السيطرة على الطائرة ، خلال سبع دقائق من الآن ، فسيعنى هذا أن الطائرة ستصبح داخل المجال الجوى الإسرائيلى .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :

ــ وهذا يعنى الفشل للأسف .. الفشل التام .

قالها ، فهبط وجوم ثقيل على الحاضرين .. كل الحاضرين ..

* * *

انهمرت دموع الصبى (أحمد) فى ارتياع ، وهو يدفن وجهه فى صدر (وفاء) ، ويهتف :

ــ لا أريد أن أموت .. أريد العودة إلى أبى وأمى .. لا أريد الذهاب إلى (إسرائيل) .. أبى يقول : إنهم أشرار هناك .

ربتت عليه فى حنان ، على الرغم من خوفها ، وغمغمت :

ــ اطمئن يا صغيرى .. ستعود بإذن الله إلى أبيك وأمك .

صاح فيها الإرهابى الغليظ :

ــ اخرسى يا ذات القلب الحنون .. لا أحد منكم سيعود إلى (مصر) أبدًا .

انتفضت ، وهى تقول :

ــ لماذا ؟!.. إنكم ستحصلون على ما تبغون .. لماذا تؤذوننا إذن ؟

هزّ كتفيه ، وأطلق ضحكة ساخرة ، وهو يقول :

ــ يبدو أننا نحب هذا .. إننا نميل إلى إيذاء العرب .. كل العرب .. وبالذات المصريين منهم .

شحب وجهها ، وهى تقول :

ــ أنت إسرائيلى .. أليس كذلك ؟

قهقه ضاحكا مرة أخرى ، وهو يقول :

ــ يا للعبقرية !.. هل توصلت إلى هذا وحدك ؟

ازداد شحوب وجهها ، وراحت ترتجف فى شدة ، فى نفس اللحظة التى قال فيها الآخر ، الذى يقف عند كابينة القيادة ، وهو يبتسم فى ارتياح :

ــ دخلنا مجالنا الجوى .

سرت همهمة مذعورة بين الركاب ، وجحظت عيونهم ، وهم

يتطلعون إلى جثث رجال الأمن الثلاثة ، الذى استقلوا الطائرة لحماية الآثار المصرية ، فذبحهم هؤلاء الإسرائيليون بلا رحمة ، وتصوّر كل منهم أن مصيره لن يختلف عنهم كثيرًا ، وانكمشت (وفاء) بالذات فى مقعدها ، وهى تتمتم فى ارتياع :

ـ ستقتلوننا جميعًا ، فور هبوطكم فى (إسرائيل) .. أليس كذلك ؟ .. ما دمتم كشفتم لنا عن هويتكم ، فهذا يعنى أنكم قرّرتم إعدامنا بالفعل .

ابتسم الرجل فى سخرية ، وهو يقول :

ـ ألم أقل لك : إنك عبقرية ؟. من أين تأتين بكل هذا الذكاء ؟!

تفجّرت الدموع من عينيها ، وهى تهتف :

ـ أنتم وحوش . وحوش قساة القلب .. لماذا ستقتلوننا هناك ؟.. لماذا ؟

كشّر الرجل عن أنيابه ، وهو يقول :

ـ اطمئنى .. انت بالذات لن أقتلك هناك .

ثم انتزعها من مقعدها فى قسوة مخيفة ، مستطردًا :

ـ سأقتلك هنا .

صرخت (وفاء) فى رعب ، وراح الصبى يصرخ بشكل هستيرى متصل ، وشاركه الركاب صيحات الخوف والانهيار ، ولكن كل هذا لم يوقف ذلك الوحش الإسرائيلى ، الذى جذب إبرة إطلاق النار ، وقفز بسبّابته إلى الزناد ، وهو يلصق فوهة مدفعه الآلى الصغير بعنق (وفاء) ..

كان من الواضح أنه لا شىء سيمنعه هذه المرة من قتلها .. لا شىء ..

* * *

أسبل رجل المخابرات الإسرائيلى (زايون) جفنيه فى تراخ ، وهو يسترخى داخل سيّارته الأنيقة ، داخل المطار العسكرى ، بالقرب من حدود وقف إطلاق النار (*) ، وراح يتطلّع إلى السماء فى هدوء ، فى حين اقترب منه أحد الجنود ، وأدّى التحية العسكرية ، وهو يقول فى احترام شديد :

ـ الطائرة دخلت مجالنا الجوى يا سيّدى .. وصلتنا إشارة عاجلة بهذا .

ارتسمت على شفتى (زايون) ابتسامة ساخرة ، دون أن يتغيّر وضع الاسترخاء ، الذى يعبّر عنه جسده كله ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .

قالها ، وعاد إلى صمته لحظات ، حتى سأله الجندى فى تردّد :

ـ والآن ماذا ينبغى أن نفعل يا سيّدى ؟

فتح (زايون) عينيه فى بطء ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً :

ـ المعتاد .

هتف الجندى فى دهشة :

ـ المعتاد ؟!

اعتدل (زايون) ، وهو يقول فى صرامة :

(*) تدور وقائع القصة قبل توقيع اتفاقية (كامب دافيد) ، وقبل أن تسترد (مصر) (سيناء) بالكامل .

ـ بالتأكيد .. ماذا نفعل عادة ، عندما تخترق طائرة ما مجالنا الجوى ؟

قال الجندى فى تردُّد :

ـ نحذِّرها لاسلكيًا ، ونطالبها بتحديد هويتها ، وتبرير اقتحامها لمجالنا الجوى ، ثم نطالبها بالهبوط والخضوع لنا ، وفى حالة رفضها ، نطلق مقاتلتين لاعتراضها ، وإجبارها على الهبوط .

عاد (زايون) يسترخى ، وهو يقول :

ـ عظيم .. قم بكل هذا إذن .

صمت الجندى لحظة فى دهشة ، قبل أن يندفع قائلاً :

ـ ولكنكم قلتم إن جهاز اللاسلكى فى تلك الطائرة سيكون محطمًا ، طبقًا لخطتكم ، وإن رجالنا يسيطرون عليها ، و ..

اعتدل (زايون) فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ وماذا ؟.. لو أن جهاز اللاسلكى فى الطائرة مُحطَّم ، فالمفروض أننا وحدنا نعلم هذا ، أما أجهزة اللاسلكى الأخرى ، التى ستلتقط إشارتنا ، فسيبدو لها أننا دولة بريئة مسالمة ، اخترقت طائرة مجهولة مجالها الجوى ، فاضطرَّت للقيام بالإجراءات الروتينية للتعامل معها .

تهلَّلت أسارير الجندى ، وهو يقول :

ـ آه .. فهمت .. سأنفذ الأوامر على الفور يا سيِّدى .

وابتعد فى خطوات سريعة ، فألقى عليه (زايون) نظرة ساخرة ، وغمغم :

ـ خطأ أيها الغبى .. أنت لم تفهم شيئا .. لم تفهم شيئًا قط .

ثم ابتسم ابتسامة واسعة ، مستطردًا :

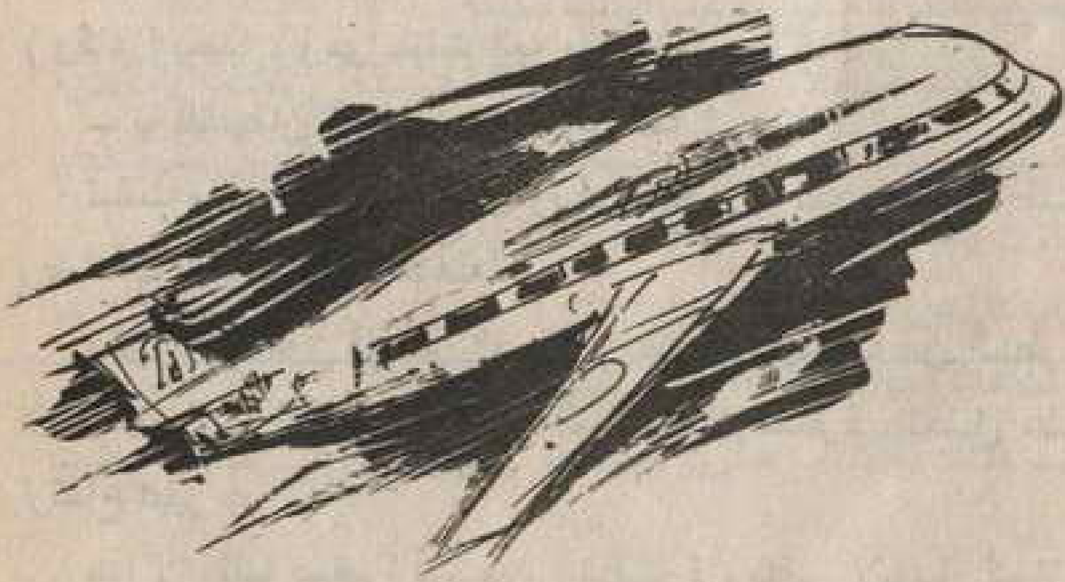
ـ فاليوم سيتعلَّم المصريون الدرس .. سيتعلَّمون أن العبث مع (الموساد) ينتهى دائمًا بعواقب وخيمة .. وخيمة للغاية ..

قالها ، وعاد يسترخى داخل سيارته أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *



٦ ــ القتال ..

هوت قلوب الركّاب بين أقدامهم ، داخل الطائرة المصرية ، واتسعت عيونهم فى ارتياع ، عندما ألصق الإرهابى فوهة مدفعه القصير بعنق (وفاء) ، واستعد لإطلاق النار ..

كان من الواضح أنه يستغلّ غياب زعيمه للثأر منها ..

وأنه ما من شىء سيحول بينه وبين قتلها بلا رحمة .. وبلا تردُّد ..

ولكن فجأة ، اقتحم الشاب المكان ..

اقتحمه بوثبة رشيقه ، عبر فتحة الطوارئ فى مؤخرة الطائرة ، فانتفض جسد الإرهابى فى عنف ، أمام المفاجأة المذهلة ، ودفع (وفاء) بعيدًا ، وهو يلتفت إليه بمدفعه ، صارخًا :

ــ يا للشيطان !. كيف دخلت إلى هنا ؟

كانت سبّابته تسرع نحو زناد مدفعه ، ولكن الشاب أطلق رصاصته أوّلا بسرعة مدهشة ..

وكل من يعملون فى هذا المجال ، يعلمون جيدًا أنه من الخطر ، كل الخطر ، أن يطلق شخص ما النار داخل طائرة ، تحلّق على ارتفاع كبير ..

هذا لأن ثقبًا صغيرًا فى جدار الطائرة ، يكفى لانهيار توازن الضغط داخلها فى لحظات ، فتنفجر نوافذها ، وتتحطّم جدرانها ، وينتهى أمرها فى دقائق معدودة ..

ولكن الشاب لم يكن ليسمح بإصابة واحدة فى الجدار ..

لقد أطلق رصاصته ، وهو يثب إلى الأمام ، وأصاب خصمه إصابة مباشرة ، فى منتصف جبهته تمامًا ، فجحظت عيناه لحظة ، ثم هوى جثة هامدة ، فى نفس اللحظة التى صرخ فيها الإرهابى الآخر :

ــ احترس يا (يائيل) .. لقد خدعونا .

قالها ، وهو يستدير بمدفعه الآلى ، ويستعد لإطلاقه نحو الشاب ، الذى قفز قفزة مذهلة ، ودار جسده قليلاً فى الهواء ، قبل أن يسقط على ظهره أرضًا ، وينزلق لحظة ، وهو يميل خلفًا ، ويطلق رصاصتين من مسدسه ، اخترقت إحداهما عنق الرجل ، والأخرى صدره ، فى موضع القلب تمامًا ..

وانطلقت صيحات الركّاب فى سعادة ولهفة ، عندما شاهدوا الإرهابيين يسقطان جثّتين هامدتين ، واندفعوا من مقاعدهم يحيطون بالبطل ، الذى سألهم فى اهتمام :

ــ هل يوجد آخرون ؟

اندفعت نحوه (وفاء) وهى تهتف :

ــ هناك ثالث فى مخزن الحقائب .. ولكن قل لى : كيف دخلت إلى هنا ؟

تجاهل سؤالها ، وهو يسأل :

ــ أهم ثلاثة فقط ؟

أجابه راكب آخر :



لقد طلق رصاصته ، وهو يثب إلى الأمام ، وأصاب خصمه إصابة مباشرة ، فى منتصف جبهته تمامًا ..

ـ نعم .. ثلاثة فحسب .

سأل وهو يزيح الركَّاب ، ويتحرك فى سرعة نحو كابينة القيادة :

ـ وأين مدخل مخزن الحقائب هذا ؟

عدت خلفه (وفاء) ، وهى تجيب :

ـ فى مؤخرة الطائرة .. أسرع قبل أن يفعل أى شىء .

اندفع أولاً إلى كابينة القيادة ، وقال لمساعد القائد :

ـ هل عبرت المجال الجوى الإسرائيلى ؟

أجابه الرجل فى ذهول :

ـ إننا داخله بالفعل ، ولكن كيف وصلت إلى هنا ؟

قال الشاب فى حزم ، متجاهلاً السؤال للمرة الثانية :

ـ اخرج منه بأقصى سرعة ، ولا تضيع لحظة واحدة .

اعتدل الطيَّار الأوَّل ، وقال فى إرهاق :

ـ هيا أطع أوامره يا رجل .. اخرج من المجال الجوى الإسرائيلى بأقصى سرعة .. هيا .

أما الشاب ، فقد عاد أدراجه بسرعة ، وهو يقول للركَّاب فى صرامة :

ـ فليعد كل منكم إلى مقعده .. الخطر لم ينته بعد .

ثم توقَّف قائلاً :

ـ من منكم (وفاء) ؟

هتفت (وفاء) فى دهشة :

ـ أنا ؟! .. هل تعرفنى ؟

التفت إليها ، وقال :

ـ عمك يرسل إليك تحيّاته :

تحولت دهشتها إلى ذهول ، وهى تهتف :

ـ عمى ؟! .. عمى (نسيم) ؟!

ولم يجب الشاب هذه المرة أيضًا ، بل واصل سيره فى سرعة ، نحو المدخل الذى يقود إلى مخزن الحقائب ، ووثب عبره ، ..

واستعد لمواجهة زعيم الإرهابيين ..

المواجهة الأخيرة ..

* * *

انتفض (زايون) فى عنف ، وهو يعتدل هاتفًا :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟.. أية طائرة تلك التى تتراجع .

أجابه الجندى فى توتر مضطرب :

ـ الطائرة المصرية يا سيّدى .. كنا نقوم بالإجراءات التقليدية ، عندما فوجئنا بها تستدير ، وتنطلق عائدة إلى المجال الجوى المصرى .

صرخ (زايون) :

ـ مستحيل !.. لا تسمحوا لها بالعودة قط .. أين المقاتلات ؟

ارتجف الجندى ، وهو يجيب :

ـ لم نكن قد بلغنا هذه المرحلة بعد يا سيّدى .

صاح (زايون) :

ـ وماذا تنتظر يا رجل ؟.. أطلقوا مقاتلتين خلفها .. الأوامر محدودة ، ولا مجال للمساومة فيها .. سنجبر هذه الطائرة على الهبوط فى (إسرائيل) ، أو ..

وانعقد حاجباه كشيطان مريد ، وهو يضيف فى وحشية :

ـ أو ننسفها نسفًا .

تراجع الجندى مبهوتًا ، وهو يقول :

ـ ورجالنا على متنها يا سيّدى ؟!

لوّح (زايون) بذراعه فى عنف ، قائلاً :

ـ قلت : لا مساومة .

وانتفض جسده كله ، من فرط الانفعال ، وهو يضيف :

ـ ما تحمله هذه الطائرة لا ينبغى أن يصل إلى (القاهرة) أبدًا .. مهما كان الثمن .. هل تفهم يا رجل ؟.. مهما كان الثمن .

وكان من المحتم ، بناءً على هذا ، أن تنطلق المقاتلات الإسرائيلية ، ولديها أمر واحد ..

أمر بالنصر ..

أو القتل ..

* * *

سمع (يائيل) تلك الصيحة التحذيرية ، التى أطلقها رفاقه ، وهو داخل مخزن الطائرة ، فاشتعلت أعصابه كلها ، وهو يهتف :

ـ اللعنة !.. كيف فعلوا هذا ؟.. أراهن على أنهم دسّوا شخصًا ما ، فى جسم الطائرة ، قبل إقلاعها من (قبرص) .. اللعنة !

ثم راح يضرب الصناديق ، ويفتحها بمنتهى العنف ، ويبحث فى جنون عن الوثيقة ، وتألقت عيناه فى شدة ، عندما لمحها تستقر ، داخل غلاف من البلاستيك ، بين قطع الآثار الثمينة ، فهتف :

ــ أخيرًا ..

وفى نفس اللحظة التى التقطها فيها ، وثب (فاى) داخل المخزن ..

وفى سرعة تليق بالمحترفين ، استدار إليه ، (يائيل) ، وألقى خنجره ..

وقبل أن يقفز الشاب مبتعدًا ، أصاب الخنجر يده ، ومزق جزءًا منها ، وأفقده مسدسه ، ولكنه استعاده فى سرعة ، وهو يثب محتميًا بصندوق كبير ..

وفى عصبية ، هتف (يائيل) ، وهو يستل مسدسه :

ــ لست أدرى كيف وصلت إلى هنا يا هذا ولكنك لن تظفر بى أبدًا .

تحرك الشاب بسرعة ، وهو يقول :

ــ لا داعى للمكابرة يا رجل .. اللعبة انتهت تقريبًا .. لقد قضيت على زميليك ، والطائرة تعود أدراجها ، وتنطلق مغادرة المجال الجوى الإسرائيلى .

قهقه (يائيل) ضاحكًا فى عصبية ، وهو يقول :

ــ هذا لا يعنى أنك انتصرت .. فمن يدرى ؟.. ربما نجحتك أنا هنا ، واستعدت سيطرتى على الطائرة .

اندفع الشاب نحو ذراع قصيرة فى الجدار ، فدفعها فى قوة ، ثم حطمها ، قائلاً :

ــ لن يحدث هذا أبدًا .

ومع حركته أُغلقَ مدخل المخزن الداخلى فى إحكام ، ومع تحطم الذراع ، صار فتحه مستحيلاً ، والشاب يتابع فى صرامة :

ــ لقد أصبحنا سجينين هنا .. أنا وأنت ، ولن يتم فتح المخزن ، إلا عند عودتنا إلى (القاهرة) ، وهذا يعنى أن مهمتك قد فشلت .

زاغت عينا (يائيل) ، وهما تدوران فيما حوله ، وقد شعر أنه أشبه بفأر فى المصيدة ، ثم هتف فجأة :

ــ ليس بعد .

قالها ، واندفع نحو مظلة طوارئ ، معلقة على الجدار ، فانتزعها فى عنف ، وأخذ يلبسها فى سرعة ، وصندوق الآثار الكبير يخفيه عن عينى (فاى) ، الذى قال :

ــ لا توجد وسيلة واحدة للخروج من هنا ، إلا فى (القاهرة) .

قهقه (يائيل) ضاحكًا ، وهو يقول :

ــ هذا ما تتصوره أيها المصرى المغرور .. ألا تعلم لماذا صمموا مدخل المخزن الداخلى ، وجعلوه محكمًا إلى هذا الحد ؟..

لقد فعلوهـا ليعزلـوا المخـزن عـن قلـب الطـائرة تمامًا عنـد الضرورة .. هل تعلم لماذا ؟

ثم جذب ذراعًا أخرى فى الجدار ، صارخًا :

ـ لأنه يوجد هنا مخرج طوارئ خاص .

ومع صرخته ، انفتح مخرج الطوارئ فى عنف ، ودوت فى المكان فرقعة قوية ، وجذب الانخفاض المفاجئ فى الضغط جسد (يائيل) إلى الخارج ، وهو يطلق ضحكة ظافرة مجلجلة .

ولم يتردد الشاب لحظة واحدة ..

لقد انطلق يعدو بكل قوته ، ووثب من مخـرج الطوارئ خلف (يائيل) ..

فعلها ، وهو يعلم جيدًا أنـه حتـى ولـو استعاد الوثيقـة ، فالمنطقة التى قفز فيها من الطـائرة ما زالت تقع داخل المجال نفسه ..

المجال الجوى الإسرائيلى ..

* * *

[انتهى الجزء الأول بحمد الله]

ويليه الجزء الثانى

فى (كوكتيل ٢٠٠٠) العدد الثانى والعشرين

الكوكب العاشر ـ وقصص أخرى

* * *

المرأة
مشكلة صنعها الرجل (دراسة)



للمرة الأخيرة ، ستقتصر الدراسة فى هذا الكتاب على نشر آراء القرّاء .

وربما ، يعترض البعض منكم على الاستمرار فى نشر خطابات وآراء القرّاء حول هذه المشكلة ، لثلاثة كتب كاملة ، ويعتبر البعض الآخر أنها مضيعة للوقت ، أو أنها مقدمة أطول مما ينبغى ..

ولكن الواقع أن هذه الخطابات شديدة الأهمية ، بالنسبة للدراسة نفسها ..

أو لو شئنا الدقة ، هى المنبع الرئيسى للدراسة ..

إنها آراؤكم أنتم ..

آراء فتيان وفتيات ، حول مشكلة تسبب الكثير من القلق والتوتر والاضطراب ، فى المجتمعات العربية والغربية ..

وربما تدهشون لو قلت لكم : إنها مشكلة أشدّ تعقيدًا فى المجتمعات الغربية ، منها فى العربية .

ستدهشون ؛ لأنكم تتصوّرون أن المرأة فى المجتمعات الغربية ، تتمتّع بقدر كبير من الحرية الاجتماعية والمادية والاقتصادية ، بحيث يصعب أن تمثل لها العلاقة بينها وبين الرجل مشكلة عويصة ..

ولكن هذا غير صحيح بالمرة ..

صحيح أن المرأة الغربية انتزعت الكثير والكثير من الحقوق من الرجل ، بل وحصلت فى بعض المجتمعات على ما يفوق حقوق الرجل نفسه ، ولكن هذا لم يمنعها من التوتر الشديد فى علاقتها به ، والتصادم معه على نحو عنيف ، وإلا ما كانت نسبة الطلاق هناك مرتفعة بشدة عن مثيلتها هنا ..

كل ما فى الأمر هو أن نوع المشاكل يختلف ..

ولكنها تبقى ..

وأعتقد أننى أدين لكم بالشكر العميق ، على كل ما أرسلتموه من آراء ومقترحات ، فى هذا الشأن ، فقد ساعدتنى خطاباتكم على تأكيد بعض الآراء ، ونفى البعض الآخر ، وتعديل وجهة نظرى فى عدد من الأمور ..

وهذا بالتأكيد يساعد الدراسة كثيرًا ..

كثيرًا جدًا ..

والآن ، دعونا نطالع معًا ذلك العدد المحدود من الرسائل ، الذى اخترته لهذا الكتاب ، كخاتمة لعرض آرائكم ، قبل البدء فى تقديم صفحات الدراسة نفسها ..

هيا بنا .. ولنقرأ معًا ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزى الأستاذ الدكتور : نبيل فاروق

أما بعد ...

قرأت كتابك الثامن عشر من مجموعة كوكتيل ٢٠٠٠ ، ولفت نظرى تلك الدراسة التى أجريتها سيادتكم حول [المرأة مشكلة صنعها الرجل] وقد قررت أن أرسل لسيادتكم خطابى هذا ، الذى أشرح فيه وجهة نظرى فى ذلك الموضوع ، الذى احتل أجزاء كبيرة فى الصحف منذ أن عمل عقل الأستاذ الفاضل | قاسم أمين ، بمشكلة المساواة بين الرجل والمرأة والعلاقة بينهما ..

والمرأة ـ بوجه عام ـ فى أى مرحلة سنية ، لابد لها من حدود لا يجب تخطيها ، أو بمعنى آخر ، أسوار تقف عندها عاجزة عن مواصلة السير فى كل شىء ، فى التعاملات اليومية ؛ سواء مع بنات جنسها أو الجنس الآخر ؛ وفى إظهار المشاعر والأحاسيس ، والذى يحكم عليها هذا الحصار ، هو ما يحاربه بعض الشباب وهو [العادات والتقاليد] التى تُنهى بها المناقشات بين الفتاة وأبيها ، أو الطفلة مع أبيها وذويها ...

وعندئذ برزت المشكلة التى صنعها الرجل .. المرأة ، ولكن

المرأة المعقدة حيث إن الأب سجن ابنته فى تلك العبارة السابقة ، والأخ فعل كذلك . وبينما المرأة غارقة فى قائمة الممنوعات هذه إذ تنتبه إلى أن الجنس الآخر ، يختلف بزاوية قدرها ١٨٠° ، حيث تباح له جميع المحظورات فى كل مكان وزمان ...

وجاءت نظرة المرأة فى موقعها ، حيث وجدت تميز الرجل فى كل شىء مثل :

الرجل هو الحاكم والآمر الناهى فى منزل التربية ومنزل الزوجية !

وعند الزواج يكون التحكم فى هدم العش السعيد أو استمرار وجوده فى يد الرجل ، حيث تكون العصمة فى يده ، وفى يده أن يجعل أو لا يجعل .

ومنذ الأزل والمرأة تهان وينسب لها العار والفضيحة ، كما فى أيام العرب ، قبل الرسول (ﷺ) . وعندما جاء الإسلام والأديان السماوية أعطيت للمرأة بعضٌ من حقوقها المسلوبة دون إرادة ، ولكن بعد ذلك ، وإلى نصف قرن مضى ، كانت المرأة مُسيرة بحيث إذا تقدم أحد لخطبتها لا تملك الرفض أو الموافقة ، وإنما كانت تسمع وتطيع فقط .

وأرى أن الإفراط فى المعاملة بنوعيها : الجادة القاسية ، أو المحبة الحانية مع المرأة بالذات ، يجب أن تكون محسوبة وبدقة حتى لا [يفلت العيار] ، أو [يترك الحبل على الغارب] ، وحتى لا [تمشى على حل شعرها] ، بالذات فى مرحلة المراهقة ، وحتى وهى طفلة يجب توعيتها بأشياء ، ويجب محو بعض الأشياء كليًا

من ذاكرتها ، حتى سن معينة ، حتى يكون عندها توافق عقلى وسنىٌ كبير ، حيث إن الفتيات بالذات فى سن المراهقة ، يعجبن بعبارات المجاملة المعسولة التى يكون وراءها أشياء غير شريفة توجه إليها دون أن تدرى ، فإذا تفتح عقلها مثلا فى سن الطفولة على تحديد العلاقة بالجنس الآخر ، وتقصر واجباتها وحقوقها على الدراسة ومتعلقاتها ، وفى سن المراهقة على أن الفتاة لابد لها من الحياء ، وأن تكون فتاة (واعية) لما تفعل ، ولما تقول وتتحدث به مع كل من يقابلها من بنى البشر ..

وأقول ثانية إن مشكلة المرأة أو (المرأة المشكلة) ، تحدث من جملة : هذا يجب ... وهذا لا يجب ، فى كل مراحل حياتها : (الطفولة ـ الشباب ـ المراهقة ـ الهرم) .

وتعليقًا على كلام سيادتكم بخصوص أن المرأة لا أحد يفهمها ، فإن ذلك بسبب محاولة تخليص نفسها ، من تلك المحاولات التى تجرى لمحو سلطتها ، فتحاول ـ برد الفعل المعاكس فى الاتجاه والمساوى فى القوة ـ أن تثبت شخصيتها ووجودها ، فمثلاً فى فصول الدراسة ، عند انتخاب رئيس للفصل من الطلبة ، لا يجب دخول الفتيات فى ذلك الانتخاب ، وذلك لأنها لا تستطيع تحمل المسئولية التى يقوم بها الفتى بصعوبة ، وحتى وإن [جرؤت] ودخلت فى الانتخابات ، فستهزم هزيمة ساحقة ليس لها مثال ، إذ لن يرضى أى فتى أن يجعلها قائدته العاقلة الحكيمة !! ..

وحاولت مرارًا وتكرارًا ، حتى نجحت مسز (مارجريت تاتشر) فى تولى أكثر المناصب أهمية فى انجلترا ، وعارض ذلك كل من

هم دون هذا المنصب ، إذ إن السياسة لعبة خطرة ، لا يجوز للمرأة أن تتولى الحكم فيها ولو خفيرة ! ولا يجوز لها أن تجلس على مكتب ، وتأمر وتنهى فيمن هم تحت قيادتها وسلطتها ، حتى لا يصفها أحد بالقسوة أو الحنو ..

وأما بخصوص أن المرأة لا أحد يقدرها ، فذلك لعجزها بدنيًا وعقليًا عن مواجهة الرجل ... ولكل قاعدة شواذ [فأنا أعتبر ضعف المرأة قاعدة عامة على كل بنى البشر وغير البشر] ، فقد تفوقت المرأة فى مجال الرياضة ، ودخلت الموسوعات العالمية فى القوة ، والزمن القياسى للألعاب ، وكانت المفاجأة هى دخولها فى (الأولمبياد) والتصفيات النهائية .. وكل ذلك فى محاولة لإثبات أن المرأة جديرة بالتقدير والاحترام ، أى عكس ما يقوله عنها البشر ، وتفوقت المرأة أيضًا فى المجال العقلى ، حيث دخلت كليات الحقوق والصحافة ، فساوت الرجل ، ولكنها ما زالت مشكلة حتى بعد التجديد !

وعندما رأى الرجل أو معشر الرجال ، محاولات المرأة اليائسة من تحقيق المساواة بينها وبينه ، أفسح لها مجالات لمحاولة تهدئة روعها وكبح جماحها ، فتفوقت المرأة فى مجال له أهميته فى الدولة وفى العالم ، ألا وهو : الغناء ! وظهرت أم كلثوم ، ومع تقدير العالم العربى لصوتها ، حاول إنعاش مشاعرها فأطلق عليها ــ كوكب الشرق ــ وفى رأيى أننى أعتبر هذا الاسم سخرية وتفرقة جنسية واضحة ، حيث إن الكوكب لا يملك أن يظهر

يظهر إشعاع ضوء واحدًا ، دون أن يكون له مصدر آخر وهو الرجل ، وهى نفس العلاقة بين الشمس والقمر . وأود أخيرًا أن تلقى كلماتى وقعًا طيبًا فى نفسك أو حتى تحمل أى قدر من التقدير .

ملاحظة : أود أن أسأل سيادتكم لماذا جال بخاطركم هذا الموضوع الذى حُسم قبل أن يعرف طريقه للنور ؟

تامر محمد المرشدى محمد
طالب بالصف الأول الثانوى

* * *

المرأة مشكلة صنعها الرجل

جذبتنى هذه الدراسة بفكرتها الجليلة ، وهدفها السامى ، فنحن نرى العالم من حولنا يعانى ويلات هذه المشكلة ، وكل يبحث عن حل ، فيصل إلى طريق مسدود ، فتحدث الكثير من المفكرين والباحثين عن تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، وصوروا حياة المرأة بأنها سلسلة من العذابات ، تبدأ من كروموسوم (×) الذى تكتسبة من والدها ، ويحدد تكوينها ويفرقها عن الذكر . وقد ترك لنا الدكتور (نبيل فاروق) الحرية فى توضيح آرائنا ، وبسطها بالطريقة التى تناسبنا ، وهذه فرصة لا تتاح للكثير من الشباب والفتيات ، فشكرًا له .

من هى المرأة ؟؟ ...

المرأة إنسان يتمتع بكل التكريم الذى أضفاه الله على بنى آدم فلها روح من روح الله كما للرجل ، خلقها الله فى أحسن تقويم ،

وفطرها على التوحيد ، وشق لها سمعها وبصرها ، ووهبها العقل والفؤاد . صحيح أن الله لم يمنحها قوة الرجال ، إلا أنه سبحانه ميزها عليهم بأن منحها القدرة على إنجاب الحياة ، فهى الأم التى عجزت الكلمات عن إيفائها حقها ـ على كثرة ما قيل فيه ـ وجعل لها من ضعفها سلاحا ، ومن الرقة والاحتمال ملاءمة لهمتها العظيمة فى الحياة . هذه هى المرأة التى صورها الناس بصورة الكائن الناقص المعذب ، وهى فى حقيقتها صورة جميلة غير ناقصة ولا مشوهة . فكما أحسن الله خلقها ، فرض عليها واجبات وشرع لها حقوقا تضمن لها حياة كريمة . وهذه الحقوق نراها فى أجمل حللها فى دين الإسلام الذى أكمله الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

فلنر كيف وجد الإسلام المرأة عند مجيئه ؟ جاء الإسلام فوجد المرأة مهانة ، يرثها الرجل ضمن ما يرث من متاع أبيه . ووجدها تعيسة يئدها أبوها بعد أن تلتقط أول أنفاسها .

« وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » وجاء الإسلام فوجد المرأة مهضومة حقوقها كإنسان ، فلم تكن الكنيسة تعتبر قتل المرأة جريمة بل هو كقتل الحيوان . فما هذه الحياة التى كانت تعيشها المرأة ؟؟ إن صح أن نسميها حياة !.

فماذا فعل الإسلام ؟.. انتشل الإسلام المرأة من هذا الحضيض ، ورفعها إلى أعلى المراتب فهى الأم الطاهرة المضحية « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن

اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير » . وهى الأخت الحنون وهى الزوجة المحبة « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وبهذا الارتفاع أنار الإسلام طريق النساء ، وجعل لم شموسا فى سماء الحياة من نساء التاريخ قدوات خيرة ومثلا عظيمه « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين • ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

وتاريخ الإسلام زاخر بأولئك النسوة اللاتى شاركن الرجال فى ميادين الخير ، وسابقتهم للصالحات ، ملتزمات بأوامر الله ، عالمات بأن الله لا يضيع أجر عامل من ذكر أو أنثى .

وعندما ابتعدنا عن الإسلام ونسينا أوامر الله وبهرنا بحضارة الغرب التى دخلت علينا من كل باب ، فملكت علينا سمعنا وأبصارنا ، وللأسف حتى قلوبنا ، وصرنا نأخذ كل أفكار الغرب على أنها أحكام مسلم بها ، وبديهيات لا يمكن مناقشتها . سمعناهم يقولون لنا : لم تلبسون المرأة هذا الحجاب الذى يعوق مسيرتها ، ويمنعها من ممارسة واجباتها فى المجتمع ؟ لم لا ترتدى مثل ما ترتديه الغربيات من جميل الملابس وفاتنها ؟ إنكم تجحفون بحق المرأة .

دخل هؤلاء المفسدون علينا بزخرف القول ومنمق الشعارات فمنهم المنادى بتحرير المرأة ، ولا ندرى تحريرها ممّ ؟؟ ، ومنهم المنادى بمساواتها مع الرجل ، ولا ندرى بعد مساواتها معه فى الحقوق والواجبات فيمَ نساويهما ؟. ولكن لا أحد يجيب على هؤلاء من فتياتنا ، لا أحد يقول لهم (لا) فتهاونّا فى حياتنا ، وتخلينا عن تعاليم ديننا وسرنا وراء الأهواء . إن أى حاصف عاقل ، يرى أنه ما من دعوة من هذه الدعوات ، إلا ووراءها سم ناقع يراد به طعن الإسلام والمسلمين فى الصميم .

اختار الإسلام للمرأة أن تتستر ككل عزيز مصون ، فاختاروا لها أن تمتهن كأرخص السلع ، حين زينوا لها التبرج وخلع الحجاب ، واختار لها الإسلام الترفع والعزة بأن لا تخضع بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض فاختاروا لها الخلاعة وأحلّوا لها أن تمازح هذا وتضاحك ذاك ، متعللين فى كل مرة بأن هذا من حريتها الشخصية ، فهى لا تصنع إلا ما تقتنع به . وساعدهم على ترويج آرائهم تناسينا لقول الحق :

« ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدًا » .

وعندما أشاحت المرأة وجهها فى الإسلام ، أقبلت على آرائهم تطبقها . فها هى فى الشوارع تسير كما تريد ، وترتدى ما تريد ، تخاطب من تريد كيفما تريد و ... ولكن أين بيتها من كل هذا ؟ أين أسرتها ؟. إنها تنهار .. فالرجل ـ مهما كان متحرر الأفكار ـ

سيظل رجلا يثور لكرامته ويغار على حرماته ، فطرة فيه ، خلقها الله ليسخر قوة الرجل لحماية ضعف المرأة . ولكنها تبحث عن حل لهذه الثورة وهذه الغيرة ، ففى نظرها هذا شىء أجوف تافه .

فلا يلبث هؤلاء المضللون أن يخرجوا بفكرة أخرى من أفكارهم الشيطانية : نعم لابد أنه يشك فيك ولا يثق فى أخلاقك ، ويزيد الأمر وبالاً وتتحطم الأسر ، وينظر هؤلاء ثم يضربون كفا بكفّ قائلين :

مسكينة هى المرأة ! لماذا لا تحلوا مشكلاتها لماذا لا تحرروها ؟

أميرة حامد حسن رضوان

الأحساء ـ السعودية

* * *

« الإمبراطور الزائف »

عزيزى : نبيل فاروق

تحية طيبة وبعد :

بداخلى بركان .. ومهما كتبت فلن يستطيع القلم إبراز ما بداخلى ، ولن تستطيع أقلام الكون كله فعل ذلك ، ولو كان القلم قادرًا على الصراخ لوكلته بالنيابة عنى ، وعن نساء العالم بأكمله .

صرخة واحدة تحمل فى طياتها كمّ الظلم الذى ذاقته المرأة على يد الرجل ، صرخة واحدة كفيلة بنزع الرجل من على عرشه . عرشه ـ الزائف ـ الذى صنعته له المرأة .. وأصبح هو يتسيد ،

وهى تتعبد فى محرابه .. وهذه هى الخدعة ، هذه هى الأكذوبة التى صنعتها المرأة للرجل .

ولأن الإنسان عمومًا ، يريد أن يصدق ما يتمنى ،، لذا فقد صدّق الرجل هذه الأكذوبة . والحقيقة هى عكس ذلك تمامًا ، فالواقع أن المرأة هى الحاكمة الفعلية من خلف الرجل .. هى التى تحركه بأصابعها مثل (المايورت) هى التى تمسك بزمام الأمور .

ولكنه بطريقة ما بدأ التملص من هذه الخيوط ، ليعيد حساباته ثانيةً وينتقم من المرأة ، أراد أن يسلبها حريتها بكل الطرق ، جعلها فى سجن ووقف هو على بابه سجانًا ، وضعها فى شرنقة مخيفة .. حتى أن المرأة عند ما خرجت بعد طول تأقلم فيها ، خرجت تائهة إلى حدّ ما ، أشبه بضائعة ، تمنت لو أنها وجدت من يأخذ بيدها ولم يكن فى انتظارها سوى الرجل يبتسم لها فى سخريةٍ وتحدٍّ .

فالرجل عندما أعطى المرأة حريتها ، لكى تتعلم وتعمل ، لم يكن ذلك بسبب إيمانه بالمساواة ، وحرية المرأة فى التعليم والعمل بعد ذلك ، ولكنه يرى أن المرأة سوف تشرب المر بسبب كل ذلك .. وأن التعليم والعمل بعد ذلك عقوبة تستحقها المرأة ، فما دامت قررت الخروج من البيت فلتشرب من كأس الحرية والمساواة .

ولكن المرأة قررت التحدى .. ونجحت ، والأمثلة كثيرة ... والشرح يطول .. وأود أن أنوه أن المرأة برغم أنها مظلومة إلا أنها ليست ضعيفة (كما قد يعتقد البعض) لم تكن المرأة ضعيفة

قط .. من أيام (حتشبسوت) و (بلقيس) و (شجرة الدر) وأيام (تاتشر) و (آميلدا ماركوس) .

وتاريخنا يقول لنا فى علم الحيوان والبيولوجى ، إن الأنثى كانت دائمًا أقوى من الذكر وأكثر تحملاً وأطول عمرًا ..

معذرة .. قد تظن أننى متحيزة لبنات جنسى ناقمة على الجنس الآخر . ولكن أرجو أن تلتمس لى العذر ، والسبب فى ذلك هو هذه الحملة الشعواء التى شنها الرجل على المرأة ، مُدعيًا أنها تزاحمه فى العمل ، وأنها سبب مشكلة البطالة فهم يفرغون ما فى جعبتهم من كره وحقد دفين على المرأة ، ولا أجد من يناصرها ويقف بجوارها ، فكل الرجال يهاجمون المرأة ويقفون جميعًا فى حزب واحد ضدها . والمرأة مظلومة فى كل ما قيل عنها ... وإليك بعضًا أو جزءًا من الألف مما قيل .. ولك الحكم فى النهاية ..

« المرأة تنفعل بالذهب والماس ، وتبرق عيونها مثل عيون القطط فى الليل أمام واجهات العربات وتوكيلات كاديلاك ومرسيدس و (فاترينات) الجواهرجية .. وإنها لا تحفل كثيرًا بالقضايا المجردة .. (الإنسانية – والعالم – والفكر – والعدالة) كلمات مجردة بالنسبة للمرأة .. فهى تريد خدمات ملموسة ومسرات واقعية فى مجال ، زينتها ولبسها ومصروفها وأكلها وشربها .. والرجل لا يهتم كثيرًا بهذه المطالب الملموسة القريبة ، وهو أحيانًا يضحى بها فى سبيل أهداف بعيدة مجردة غير ملموسة ، مثل الفن والفكر والحرية الوطنية .. والمرأة فى الغالب

لا تفهم هذه التضحية .. إنها تريد عيشة (لوكس وفخفخة) .. و« فكر إيه ياعم ، وأنا مالى ومال الفكر .. خليك اشبع بالفكر بتاعك .. لكن أنا عايزة أعيش » .

وأيضًا قالوا فى الأمثال ..

ـ للمرأة سبعة وسبعون رأيًا فى آن واحد . « مثل روسى »

ـ لا تثق بالمرأة وإن ماتت . « مثل يونانى »

ـ ثق بكلبك على طول الخط ولا تثق بالمرأة إلا فى المرة الأولى . « مثل إنجليزى »

ـ بالعين تطلب المرأة ، فتأخذ ، وتكره ، وتقتل . « مثل أسبانى »

ـ رجل بلا رأس .. رأس بلا جسد ، إمرأة بلا رجل .. جسد بلا رأس . « مثل ألمانى »

ما رأيك ؟؟

واعلم أننى لست أرجو إنصافًا منك .. وأنت الخصم والحكم .

ولعلنى الآن ما زلت مندهشة من أنك أنت بالأخص الذى ناديت بهذه التجربة .. وأشكرك على هذه الفرصة للحديث معنا ، وسماع أقوالنا .

وأخيرًا لا آخرًا :

كفى بالله عليكم هجومًا على المرأة ، فهى تسمع وتصمت ، مشفقة على الرجل ـ من هول ما سيحدث ـ إذا تكلمت .. لأنها لو فعلت لاندلعت نيران جهنم ، لأنها سوف تشن حربًا على الرجال جميعًا .

فكفى استفزازا لنا ، واتركونا وشأننا ، لأننا لا نريد إيذاء أحد منكم ، وهذا هو الفرق بيننا وبينكم .

الصديقة : عبير محمد جبر

١٩ سنة ـ دمياط

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور : نبيل فاروق ..

إنه لمن دواعى سرورى أن أحاول المشاركة فى تلك المناقشة التى أثرتها ، حول موضوع من أهم المواضيع ، وهو تلك المشكلة التى نشأت بين المرأة والرجل ، مشكلة التفرقة بين كليهما فى العديد من المجالات ، وسأكون فى قمة السعادة لو وافقت سيادتك أن أكون ممن يمكنهن إظهار رأيهم عبر ذلك الباب الجديد فى كوكتيل ٢٠٠٠ ـ وإليك وجهة نظرى فى هذا الموضوع ..

(المرأة مشكلة صنعها الرجل)

ربما هذه العبارة تفتقر إلى الدقة الكافية ، التى تحمل لنا المدلول الحقيقى للمشكلة ..

ولعل العبارة الأكثر دقة .. « العلاقة بين الرجل والمرأة مشكلة كبيرة ، غُرست بذورها منذ فجر التاريخ ، فارتوت من الظروف التى مرت بينهما ، ونمت وامتدت جذورها عبر الأيام والأعوام ، وكان نتاجها مشكلة كبيرة وضعت حاجزًا كبيرًا بين الرجل والمرأة » .

ـ لعل تلك الفوارق الكبيرة التى صنعتها الأيام بين الرجل والمرأة ، لم تكن أبدًا وليدة الصدفة ... وما كانت لتنتهى أبدًا ببساطة القرار .. فلا يمكن أن يصدر قرار دولى على سبيل المثال ينهى الفوارق بين الرجل والمرأة ، لأنها أيضًا بكل بساطة لم تنشأ بقرار صريح ، يقتضى التزامات خاصة تفرض على المرأة دون الرجل ... وإنما هى قرارات الطبيعة التى فرضت على الرجل أن يكون أشد قوة وتحملا من المرأة ، وأكثر منها مقدرة على العمل ، للاختلاف التشريحى بينهما .. والمشكلة لم تبدأ منذ قرن أو اثنين أو ثلاثة .. إنما بدأت منذ زمن بعيد .. دعونا نسترجع معًا بداية المشكلة .. لعلنا نتوصل إلى شىء يفيد ..

ـ البداية كانت منذ فجر التاريخ ..

حينما سكن البشر كوكب الأرض اكتشف الجميع أنهم فى حاجة إلى شىء يشبع فهمهم ، وحاجتهم الدائمة إلى الطعام ، فاندفعوا جميعًا فى رحلة بحث دائمة عن الطعام .. وكانت هذه الرحلة هى البداية .. لقد كان الجميع على حد سواء ، بما فيهم الرجل والمرأة ، وذلك لأن رغبتهم فى الطعام كانت واحدة .. ولم تكن أبدًا رحلة عادية .. لأنها وبكل بساطة لم تكن رحلة شخص أو شخصين ـ بل كان الجميع مشتركين فيها .. كان بحثهم بلا كلل أو توقف ، لأن حاجتهم للطعام كانت دائمة .. وهنا تبدأ الكارثة ، فلم يكن البشر فى هذا الوقت تحكمهم شرائع أو قوانين ، ولم يكن يحكمهم سوى قانون الغابة الوحيد ، « البقاء دائمًا للأقوى » . كان الجميع يتقاتلون من أجل ثمرة صغيرة على سبيل

المثال .. وقواعد المشكلة الأساسية تبدأ منذ هذه اللحظة ، وإن كانت قد أفادت العالم كثيرًا فى وقتنا الحاضر .... لقد أحست المرأة فى ذلك الوقت أنها أضعف كثيرًا من الرجل ، وبهذه الطريقة ستضيع هى فى سباق الحياة الذى لا ينتهى ، وبعد تفكير هداها إليه ذكاؤها الفطرى ، اكتشفت المرأة أنها يجب أن تكون فى صف الرجل ، لا أن تناصبه العداء ... ودون أن يجد الرجل سبيلا للهرب ، وجد نفسه يسقط فى حبائل المرأة ، وهنا بدأت الحياة تنقسم بينهما ...

الرجل عليه العمل والبحث عن الطعام ، والرجل عليه أيضًا أن يوفر لها سبل الحياة ، وهى تكتفى بالأعمال الأقل تعبًا ، وهى أن تعد له طعامه حينما يعود ... وبدأت الحياة تنقسم بينهما ، ولعل الفائدة الجمة التى عادت علينا الآن ، هى حياة الاستقرار التى بدأت من تلك اللحظة ..

ومرت المرأة بعصور كثيرة ، كان الرجل فيها هو المسيطر ، بداية بعصر الإنسان الأول ، ومرورًا بالعصور الوسطى ، وحتى عصر « سى السيد » ، حتى وصلت إلى عصرنا هذا ... لقد تحول الرجل إلى الركيزة الهامة فى المجتمع ، وتحولت هى إلى شىء ثانوى ، وهذا لا يرضى غرورها ، إنها أقل منه علمًا وتحضرًا ... وفى بعض البلدان أظهرت المرأة تمردها ، وخرجت لتنافس الرجل فى الكثير من المجالات .. وربما أنها فاقته فى الكثير والعديد من المجالات ، ولكنها لم تستطع أن تتملص من تلك القيود القوية ، التى فرضها عليها كل من الرجل والطبيعة ، كمسئولية المنزل وتربية الأبناء و .. و ... و ... إلخ .

وفى مناطق أخرى عاشت المرأة خلف قضبان حديدية تحكم حركتها ، وهذه القيود هى التقاليد ... تلك التقاليد التى تجبرها على أن تتحمل التفرقة فى الحقوق التى تحرم منها « هى » والتى تمنح له « هو » ، المتمثل فى زوجها وأخيها ... ولعل الخطأ الذى يقترفه هو مهما بلغت فداحته ، لا يساوى بأى صورة من الصور مقدار نفس الخطأ الذى سترتكبه هى ، وذلك لأن المجتمع ينظر لها دائمًا ، بنظرات لا تحمل سوى كونها منشأ الفضيلة ، وربما هو ليس كذلك .. وليس كذلك فقط ، بل لقد لاقت فى جميع الأزمان والأماكن الكثير من الظلم ... ففى هذه الدولة يجب عليها أن تدفن حية مع زوجها عند موته أو تحرق مع جثمانه ... واكتشفت المرأة الظلم وحاربته .. حاربت الظلم المتمثل فى الرجل .. راحت تباريه فى مجاله ... حاولت أن تكسر أنفه وتظهر له أنها الأقوى ، أو على الأقل أنها ليست أقل منه أبدًا ، وبالرغم من ذلك تحمل الرجل المرأة كثيرًا ، لأنه كان يؤدى دوره فى العمل فى مقابل أن تؤدى دورها فى المنزل .. لكنها لم ترضخ له .. بل لقد ازداد الأمر سوءًا ، لقد حاولت أن تظهر أنها أقوى منه حتى فى مجالاته هو ... وهنا تفرض المشكلة القديمة نفسها ، دون أدنى اعتراض ...

ويظهر السؤال القديم الذى بدأ مع الإنسان الأول :

« وهل ستقف المرأة مع الرجل أم فى مواجهته ؟ » .

والسؤال الآن يزداد تعقيدًا ... فالمرأة تريد أن تثبت كيانها ... ولكنها أيضًا فى حاجة إلى الرجل ... ربما لأن الرجل هو الأقوى

وهى الأضعف ، وربما لأن المجتمع ينظر إلى الرجل كذلك ... ينظر إليه بمبدأ القوة ...

والمرأة جزء من المجتمع ، لذلك يجب عليها أن تتعامل مع الرجل كأنه كذلك ، لأنها لن تستطيع أن تنفصل عن المجتمع ، وربما لو أنها حاولت فلن يسمح لها مجتمعها بذلك ... وهنا فقط تطرح سؤال حقيقى بأحرف بارزة :

« من السبب فى ذلك الفارق الكبير بين الرجل والمرأة ؟ هل هو الرجل أم المرأة ؟ أم أن ذلك الفارق هو المسار الطبيعى للحياة ؟ » . ربما أن السبب هو تلك الطبيعة التى جعلت الرجل منذ البداية يتفوق على المرأة وربما هى المرأة الأولى التى اكتفت بالعمل الأقل تعبًا .. تلك المرأة التى جعلت بنى جنسها من النساء يعشن نفس عيشتها .. فتبدو المرأة فى جميع العصور كذلك الفأر الذى دخل إلى المصيدة ، لأنه وجد قطعة من الجبن الشهى ، دون أدنى مجهود ... دون أن يعلم أنه سوف يدفع حياته كلها مقابل تلك القطعة ..

ربما كانت هذه هى جوانب المشكلة الحقيقية .. ويبقى سؤال خطير وأخير : هل من حق المرأة أن تتساوى مع الرجل فى حقوقه ؟ أم أن المرأة هكذا فى مكانها الطبيعى ؟

ربما إذا نظرنا فى الأمر نظرة متفحصة ، سنجد أن الأمر فى حاجة إلى تدخل من الرجل والمرأة على حد سواء ... هل تدرون لماذا ؟

ذلك لأن محاولة المرأة وحدها لحل هذه المشكلة ربما تتسبب

فى مشكلة أبشع .. لأنها وبكل بساطة ستكون مشكلة تدمير كامل لأفراد أسرتها ، وستكبر المشكلة وتتسع حتى تتحول إلى مأساة ، وبدلاً من أن تكون مشكلة المرأة وحدها ستكون مشكلة الرجل معها ، بل المجتمع بأكمله ..

لذلك يجب أن تنظر المرأة وهى تأخذ موقفًا ضد تلك المبادئ ، إلى أن حريتها الحبيسة كانت ثمنًا لحرية مجتمعها بأسره .. والحل الأمثل هو أن ينظر الرجل إلى المرأة ليس ككونها مخلوقًا ضعيفًا .. بل أن ينظر إليها كحقيقتها .. وفى ذلك الوقت سيعرف الرجل مركز التقصير ، وسيتخطاه مع المرأة ..

هذه هى مشكلة الزوجة أو الشقيقة ، فهى تحتاج إلى نظرة أكثر تعقلاً من شقيقها ، لأنها فى هذه الحالة لها جميع الحقوق التى له ، فيجب أن تأخذ الشقيقة حقها كاملاً ، فهى من حقها أن تفعل ما تشاء ، بشرط أن يكون غير خارج عن حدود الأمور التى فرضتها عليها الطبيعة ، دون أن يفرضها عليها الرجل .. وفى جميع الأحوال يجب أن تفعل المرأة ما تراه صوابًا ، دون أن تخرج على حدود الرجل بأى حال من الأحوال لأنها فى هذه الحالة ربما تكون السبب فى مشكلة أخرى صنعتها هى فى حق الرجل ، فيكون الأجدر بنا وقتها أن نقول : الرجل مشكلة صنعتها المرأة ..

الاسم : محمد إبراهيم الدسوقى

السن : ١٧ عامًا

مدينة دسوق ـ شارع الجيش

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

١٠ | ٢ | ٩٤

السيد الدكتور : نبيل فاروق رمضان

تحية طيبة وبعد ..

أود أولاً أن أبرهن على مدى إعجابى بتلك الفكرة الرائعة ، لأننى كثيرًا ما أشعر بمشاعر شتى تمتزج بأعماقى ، ولا أجد لها سبيلاً إلا البكاء ، وأحيانًا أنطلق نحو الورق والقلم وأسطر وأبث كلمات تعبر وتخرج ما يجيش به صدرى .

وأصدقك القول بأن الأسلوب الأخير ، أكثر فاعلية وتأثيرًا فى راحة بالى وطمأنة نفسى . ولعدم الإطالة والملل ، دعنى أدخل فى لب الموضوع مباشرة .

(انتبهوا أيها السادة)

إن المشكلة التى راودتكم لهى مشكلة أبدية وأزلية بالفعل ، تجثم على صدرى وبشدة . فنحن الآن برغم المساواة التى يزعمونها بين الرجل والمرأة ، لا يزال (سى السيد) الجبار المتسلط بسطوته وجبروته وصرامته ، يهيمن على مقاليد الأمور ، ويقود دفة السفينة ، حتى لو كان للهلاك وللقدر المحتوم .

ولكن بعيدًا عن شخصية كهذه ، وعن المشاكل الماضية التى لم يعاصرها جيلى ، ولم يرها إلا على شاشات التلفاز فقط ، دعونى أدخل فى صلب الموضوع ، ولكن من زاوية تحمل مشاكل عصرية تواكب أحداثها . سنتطرق لمشكلة واحدة فقط ، وإنها ـ فى نظرى ـ نتيجة سلبية مباشرة لما نعانيه ونقاسيه .

بالتأكيد لا يوجد مواطن مصرى عادى - أو غير عادى - لم يعلم بموضوع وقضية العتبة الشهيرة ، التى ظلت تحتل عناوين الأخبار لشهور عديدة ؟ ولكنه خبا فجأة - ذلك الموضوع - كما تخبو شظية تحولت من هول ما مرت به لرماد تذروه الرياح ، فيصبح مجرد رماد منثور .

ولن يستطيع أحد تخيل مدى الاستنكار والغضب ، اللذين كانا يسريان فى عروقى ، ويحل منها محل الدم ، فالضحية تعيش بيننا نعم ، ولكن كيانها مزلزل مهتز فهى ميتة بداخلها هى ولا تستطيع أن تواجه الحياة ثانية ، أو لربما راودتها فكرة الانتحار والعياذ بالله .

وقد تبدو المشكلة بعيدة تمامًا عن المشكلة المطروحة أساسًا ، ولكن لا .. بالتعمق وإطالة النظر ، سنجد العلاقة التى تفرض نفسها ، وتصر فى إلحاح على إثبات وجودها وظهورها على الصورة.

● الجذور :

لقد شب الفتى بعادات وتقاليد خاصة ، فهو يخرج أينما يحلو له ، دون رقيب أو حسيب أو متحكم فى سلوكه ، يعاكس بنات الناس فى الميادين ، بابتسامة جذابة ، ليشعر برجولته ، وبلا حساب أو إرشاد من الأسرة ، أما الفتاة فياللهول !! تخرج بحساب وتأتى بحساب ، ولابد لها من تقديم تقرير يومى مفصل لكل تحركاتها ، وتصدر لها الأوامر بالحضور فى الوقت كذا ، والعودة فى وقت كذا ، ولربما أيضًا تقوم بحساب عدد الخطوات التى تخطوها ، لتذهب لمدرستها ، أو لقضاء حاجاتها .

نعم . هكذا بدون أدنى مبالغة . فمن الغريب أن هناك حادثة واقعية أود عرضها على الأصدقاء ..

● أين الرجال ؟

تصادف صدور عدد كوكتيل مع وقوع حادثة شخصية واقعية ، حدثت لشقيقتى الكبرى ، فهى تعمل فى الإدارة الزراعية بفوة ، وهى بعيدة عن منزلنا ، وكانت تعانى آلام الأسنان كما هو الحال لدى معظم الشعب المصرى . وأمس خرجت من العمل فى طريقها للطبيب مباشرة ، وتصادف أن ينصحها ذلك الأخير ، بالذهاب لمدينة أخرى مجاورة لمدينتنا ، حيث إن الأجهزة فى المدينة المجاورة أكثر حداثة وتطورًا ، فذهبت الفتاة بالفعل ، ولكن لم يتوقف الأمر على هذا ، فلقد طال انتظارنا فى المنزل طويلًا فى انتظارها ، لمدة قاربت الثلاث ساعات ، ولكن لولا علم والدتى بذلك لتحول البيت إلى جحيم لا ترحم نيرانه أحدًا .

وحضرت أخيرًا لينهال على رأسها العديد من الأسئلة ، وهى لا تعلم ماذا تفعل ، فالوالدة كانت تعرف بالفعل ، والثقة فى أسرتنا لا يوجد لها حدود ، ولكن الظروف حالت دون إخبار الوالد والشقيق العزيز . وقد بدأ الوالد يفتح حنجرته عن آخرها كما لو كان قد وضع أحد مكبرًا للصوت داخلها ، لإعطاء أثر أفضل وأقوى وهو يصيح قائلًا : ماذا ؟! كيف تجرؤين ؟! ألا يوجد رجال فى المنزل لإخبارهم ؟! أين الرجال ؟! أين الرجال ؟! وأكرر أن الوالدة كانت تعلم مسبقًا بأسباب التأخير ، وحاولت تهدئة الموقف ، ولكن عبثًا . وأقسم بشرفى أنه لو لم يكن لدينا ضيوف ، لأصبحت

هذه المشكلة البسيطة هى السهرة التى ننتظرها بفارغ الصبر من الأسبوع للأسبوع بدلا من التلفاز ومسلسلاته التى لا يمكن أن يضارعها مسلسلنا الشهير ، الذى سيشق طريقه إلى التلفاز قريبًا إن شاء الله .

● لماذا ؟!

أرأيت يا سيدى العزيز ، الشاب يخرج ويمرح ، والفتاة تعانى الظلم بلا مبرر واضح مفهوم . ليس غريبًا إذن ، أن يفعل الشاب ويقدم على أبشع وأفظع وأقبح جرائم الحياة على الإطلاق .

دعونا لا نلومه إطلاقًا ، لنذهب للأسرة التى سببت هذا ، والمجتمع الذى ينظر لجوهر القضايا بمنظار يخفى الحقيقة دائمًا . لست أدرى لماذا ؟ ما السبب ؟!

لعلها القوة ، أبدًا ، فإن المرأة فى نظرى هى الأقوى والأكثر صمودًا من الرجل . تبتسمون فى سخرية واستهزاء : ماذا ؟ وما الدليل أيتها المتحزلقة ؟

تريدون الدليل ؟ حسن ، عملية الإنجاب وحدها ، إذا كانت المرأة أضعف ولا تستطيع تحمل المشاق ، فلماذا بحكمته الواسعة - عز وجل - جعل المرأة مسئولة عن عملية الإنجاب ؟! وألقى إليها بهذا الحمل الذى تنوء به الجبال ، مع العلم بأنه ودود رحيم بعباده ؟ لست أدرى لماذا ، حقيقة لست أدرى .

ألم يدرك المتسبب فى التفرقة أنه سوف يجنى ثمار هذا العمل ؟! أنه سيزرع فى مجتمعنا مشكلات لا حصر لها ؟!

ألم يدرك أنه يخلق أعباء كثيرة ، لا يستطيع مجتمعنا النامى

التخلص منها ؟! حقيقة لست أدرى .

لعلها الحكمة والخبرة والقدرة على التصرف السليم ؟ حسن . فى المشكلة التى تسيطر على أحلامنا ويقظتنا دائمًا ؟ مشكلة مسلمى البوسنة والهرسك ، والمذابح الشنيعة التى يواجهونها ، ألم تتخذ أول خطوة إيجابية نحو هؤلاء المساكين .. سيدتان ؟!

نعم سيدتان قامتا بزيارة عادية ، ولكن يكفى أن أول من ذهب وتحرك وأول من فعل شيئًا يخلده التاريخ ، وأول من أثبت أن العالم ما زال به الخير سيدتان ؟!

أعتقد أنه لا يوجد سبب واحد منطقى للتفرقة والمعاناة ، بعد هذا العرض السريع ، والذى أرجو ألا يكون مملا وكئيبًا .

حياة خاصة فى مدينة فوة :

فى مدينتنا فوة نلمس هذا التعنت واضحًا جليًا ، فهى مدينة ولكنها شبه ريفية ، تظهر بها أجلى معالم التفرقة الشخصية بين الرجل والمرأة .

نداء ودعاء :

وأخيرًا أتجه لكل نساء العالم ، أن يتحدن ويصمدن أمام ضربات الرجال المتتالية العنيفة ، فالمهمة صعبة وشاقة ، لكنها ليست مستحيلة ، حافظن على كرامتكن أولاً وأخيرًا ! وأيضًا دعونى أتجه بعتاب رقيق لكل من يحاول وضع عقبات سخيفة تحول دون الانطلاق نحو تحقيق الهدف المنشود .

هذا وأدعو الله - عز وجل - أن يوفقنا فى هذا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولاء محمد جمال الدين الشملول
طالبة بالصف الثانى الثانوى العام
١٦ عامًا
ش الجلاء - فوة - محافظة كفر الشيخ

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

صديقنا العزيز : د . نبيل فاروق .. أشكركم جزيل الشكر لطرحكم موضوع الساعة :

* المرأة مشكلة صنعها الرجل *

وأرجو التعبير عن رأيى ..

أنا فتاة ، ٢١ سنة ، طالبة بالسنة الرابعة بكلية الطب البشرى القصر العينى . ورأيى أن الفتاة التى تشعر بهذا الكم من النقص ليست بالإنسانة السوية ، فهى لم تُربى تربية سوية ، ويرجع هذا بالفعل إلى أهلها ، فلم لا تعوّد الفتاة منذ صغرها على ما أمرها الله به من واجبات ، وما أعطاه لها من حقوق ؟ فلها مميزاتها وللفتى مميزاته ، فمثلاً الأنثى تنجب والرجل لا ينجب ، ولا نجد رجلاً مثلاً يريد الإنجاب .

المرأة قادرة على تحمل الألم أكثر من الرجل ، فعندها آلام الوضع ، فلم لا يغارُ منها الرجل ؟ .

.: المشكلة يا سيدى فى تناول الأسرة ككل لتربية أبنائها ، وليس فى الأنثى كأنثى . فمثلاً لمَ نخاف أن تخرج الفتاة لوقت متأخر ، ولا نخاف على الفتى وهو أكثر تعرضًا للخطر ؟ فنضوجه عادة يتأخر سنتين عن نضوج الفتاة .

وحلاً لمثل هذه المشكلة البسيطة أرى أن الأسرة المحافظة يجب أن تخشى على الفتاة كما تخشى على الفتى من الخروج ليلاً ، كذلك تتيح التعليم والصداقات لكليهما ، وهذه هى التربية السليمة .

كذلك هناك موضوع يشغل كثيرًا من أصدقائى وهو « الحجاب » فهن يعتبرنه قيدًا عليهن ، وبصرف النظر عن أمر الله سبحانه وتعالى ، الواجب الطاعة بدون نقاش ، لو ناقشنا هذا الأمر ، لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى جعل جسد المرأة كله عورة ، وجعل جسد الرجل من السرة إلى الركبة عورة . فلم لا يناقش الرجال خروجهم مثلًا بالمايوه إلى الشارع ؟

من هنا نجد أن النفس الضعيفة التى نشأت على تربية عقيمة ، هى فقط التى تجد أن المرأة مخلوق مظلوم .

فمثلًا لمَ لا نناقشُ ، أن الفيل سمين ، والحصان رشيق ، والبلبل يغرد ، يا سيدى كلٌّ لما خلق له .

وشكرًا جزيلًا

س . ف . م

* * *

أعتقد أننا بهذا ، نكون قد استوفينا الأمر حقه ، بالنسبة لنشر رسائل وآراء القرّاء ..

وأعتقد أنكم لاحظتم حجم المشكلة ..

الأوتار مشدودة إلى حد مخيف ، فى قيثارة العلاقة بين الرجل والمرأة ..

الآراء متباينة على نحو مدهش ..

الصراع يدور فى عنف ، حتى بين سطور الخطابات ..

ولكن السؤال الفعلى هو ، لماذا ؟! ..

لماذا نشأ الصراع ؟! ..

كيف تحوّلت علاقة بسيطة ، المفروض أن تستند إلى المودّة والرحمة ، إلى مشكلة خطيرة ومعقّدة إلى هذا الحد ؟! ..

هذا هو موضوع الدراسة ، التى ستبدأ بإذن الله ، اعتبارا من الكتاب القادم ..

فإلى ذلك الحين ، دعونا نواصل الاتصال ..

والحوار ..

الحوار حول المرأة ، تلك المشكلة ..

التى صنعها الرجل .

د. نبيل فاروق



١ ــ الخيط الأوَّل ..

لست أدرى كيف أبدأ قصتى هذه ! ..

الأحداث والوقائع ما زالت تتخبّط وتتصارع فى رأسى ، على الرغم من مضى عام كامل على نهايتها العجيبة ، التى لا تقل غرابة عن بدايتها وتطوراتها ..

ومن المؤكد أنها تركت أثرًا عميقًا فى نفسى ..

عميقًا للغاية !..

لقد كنت قبلها واحدًا ممن يرتادون المجتمعات ، ويرتبطون بصداقات قوية عديدة ، وعلاقات متينة ، مع العشرات من رجال المجتمع ، سواء فى وطنى (مصر) ، أو فى (انجلترا) ، حيث أقيم وأعمل ..

وكان أكثر ما يميّزنى هو تلك الابتسامة الهادئة ، التى قلّما تفارق ثغرى ، والتى جعلت بعض أصدقائى القدامى فى (لندن) يطلقون علىّ اسم مستر (سمايل) ، أو (المبتسم) ، بلغتهم العريقة ..

أما الآن ، فقد انقلبت أحوالى تمامًا ..

لقد أصبحت كائنًا منفردًا ، أميل إلى الانطواء والعزلة ، قليل العناية بمظهرى وهندامى ، لا أغادر معملى الخاص إلا لإلقاء محاضراتى فى الجامعة ، أو لشرح بعض الظواهر الفيزيقية لطلبتى ، فى معمل الكلية ..

ولم يعد لى أصدقاء تقريبًا ..

كلهم أدهشهم ذلك التحوّر العجيب فى شخصيتى ، وحاروا فى

أمرى ، بعد أن اعتزلتهم ، ولم أعد أولى أحدهم اهتمامًا ، حتى ولو أتى لزيارتى فى ليالى السبت ، التى شهدت العديد من لقاءاتنا المرحة الطريفة ..

وكلهم يتساءلون عما أصابنى ..

عن سر انطوائى ..

عن تلك النظرة الحزينة ، التى تطلّ دومًا من عينى ، لتحل محل الابتسامة القديمة ، التى انقطعت صلتى بها تمامًا ، منذ عام بأكمله ..

وأكثر ما يثير حيرتهم وقلقهم ، هو اهتمامى الزائد ببيت الدمية ، الذى أحتفظ به فى حجرتى الخاصة ، وأمنع أى مخلوق من الاقتراب منه ، أو حتى لمسه ، مهما كانت الأسباب .. وكذلك إقبالى الشديد على شراء الدمى الصغيرة ، لتلك العروس الشهيرة (باربى) ، وكل ما يخصّها من ثياب صغيرة ، وأدوات ..

ومن المؤكّد أنهم يتصوّرون جميعًا أننى أصبت بمسّ من الجنون ..

وخاصة عندما حطمت كل النماذج الصغيرة ، التى كانت تملأ بيتى ، لعشرات السيارات ، القديمة والحديثة ، والتى كنت أسعى دومًا للحصول على الأنواع الجيدة منها ، من أشهر الماركات العالمية ، أو مما يتم صنعه يدويًا بإتقان شديد ، مهما بلغ سعره ، ومهما بذلت فى سبيل هذا من جهد ..

وربما كان الحديث عن نماذج السيارات الصغيرة هو المدخل المناسب لقصتى ..

بل هو المدخل الصحيح لها بالفعل ..

حمدًا لله .. لقد التقطت أخيرًا طرف الخيط ، الذى سيسمح لى بترتيب كل الوقائع والأحداث فى ذهنى ، بعد هذا الزمن الطويل ..

ولا تجعلوا كلمة (الزمن الطويل) هذه تدهشكم ، فالعام الواحد قد يبدو لكم فترة بسيطة محدودة ، ولكنه مرّ بالنسبة لى كدهر كامل ..

دهر لم أذق فيه طعم النوم إلا لمامًا ..

وأنفقت فيه كل مدخراتى ..

أو كدت ..

وربما كان هذا هو السبب الرئيسى ، فى إقدامى على كتابة قصتى ..

إننى أخشى أن أفقد قدرتى على الاستمرار ، ماديًا أو معنويًا ، فتكون النتيجة وخيمة ، وأفقد أحب مخلوق إلى قلبى وعقلى ، والتى ..

ولكن لا ..

دعونا لا نستبق الأحداث ..

لقد استجمعت الموقف كله ، ويمكننى أن أقص عليكم القصة الآن ..

ومن البداية ..

بداية قصتى العجيبة ..

أعجب قصة فى العالم كله ..

* * *

٢ ـ لعبة ..

فى البداية ، دعونى أقدِّم نفسى ..

اسمى الدكتور (نظمى سيف الدين) ، فى أوائل الخمسينات من العمر ، أستاذ ورئيس قسم الفيزياء النووية ، فى واحدة من أكبر جامعات (انجلترا) ، حيث أعمل وأقيم ، منذ ما يقرب من ربع القرن ، منذ حضرت من (القاهرة) ، للحصول على شهادة الدكتوراة فى هذا الفرع الدقيق من العلم ، ثم قرَّرت الاستقرار فى العاصمة البريطانية (لندن) ، بعد أن حصلت على الشهادة ، وعرضت علىَّ الجامعة وظيفة متميزة فيها ، بمرتب يسيل له اللعاب ، فى تلك الفترة ..

وأنا أعزب غير متزوّج ، ولا تسألونى لماذا ، فأنا نفسى أتساءل : هل ألهتنى أبحاثى العلمية واهتماماتى التكنولوجية ، عن التفكير فى أمور الحب والزواج ، فلم أفق من غيبوبتى هذه إلا بعد أن تجاوزت الخمسين من العمر ؟! ..

أم أن حياتى الاجتماعية الحافلة كانت تشبعنى عاطفيًا ، إلى الحد الذى لم أهتم فيه كثيرًا بتكوين أسرة وإنجاب أطفال ، والانتماء إلى عائلة مستقرة ؟!..

وأيًا كان السبب فقد قضيت ربع قرن من الزمان فى (لندن) وحيدًا ، فى منزل كبير ، يحسدنى عليه أقرانى فى الجامعة ، ولا تشغلنى فيه سوى أبحاثى المتصلة ، التى أجريها فى معمل صغير ، أقمته فى قبو المنزل ، أو هوايتى الشديدة لجمع نماذج

السيارات الصغيرة ، وبالذات النادر منها ، أو الذى تبلغ دقته حدًا يجعله أشبه بالسيارات الحقيقية ، على الرغم من دقة صنعه ..

وعلى الرغم من أننى لست الوحيد ، الذى له مثل هذه الهواية ، إلى أن أصدقائى كانوا يعجبون لشدة شغفى بجمع هذه النماذج ، وتزيين أرفف مكتبة كبيرة بها ، وباستعدادى لشراء النماذج الدقيقة منها بمبالغ كبيرة ، يعتبرونها ثروة طائلة ، لا ينبغى إنفاقها فى مثل هذه اللعب ..

صديق واحد كان يشاركنى اهتماماتى هذه ..

إنه الدكتور (ألفريد ليفيت) ، أستاذ الطب الشرعى ، فى الجامعة نفسها ..

هو أيضًا يجمع نماذج السيارات الصغيرة بنفس الشغف ، ويحرص على أن يرينى أى نموذج جديد ، ينجح فى الحصول عليه ، كما يحتفظ مثلى بعدد من النماذج النادرة ، التى دفع فيها - مثلى - ثروات طائلة ..

وكم من الممتع أن يجد المرء من يشاركه هواياته واهتماماته ..

ومن الطبيعى ، والحال هكذا ، أن تربطنى بالدكتور (ألفريد) صداقة قوية متينة ، مع اهتماماتنا المشتركة ، على الرغم من أنه يكبرنى بعشر سنوات كاملة ..

والواقع أن هوايتنا المشتركة لم تكن السبب الوحيد لارتباطى بالدكتور (ألفريد) ..

هناك سبب آخر أكثر أهمية ..

ابنته (ديانا) ..

و (ديانا) صحفية فى جريدة (ديلى ميرور) ، فى الثلاثين من عمرها ، ولكنها تبدو لفرط نشاطها وحيويتها ، وكأنها أصغر بعشر سنوات على الأقل ، كما أن ملامحها الدقيقة الرقيقة ، وابتسامتها العذبة الساحرة ، تجعلها أشبه بنموذج مصغّر للدمية الشهيرة (باربى) ، يسعدك التطلّع إليه ، ومراقبته طوال الوقت ..

ولقد وقعت فى غرام (ديانا) هذه منذ اللحظة الأولى ، التى وقع فيها بصرى عليها ، فى مكتب والدها ، منذ ثلاثة أعوام تقريبًا ..

كانت قد حصلت على الطلاق مؤخرًا ، من زوجها الصحفى بنفس الجريدة ، بعد طول عناء ، وقررت أن تدفن نفسها فى العمل ، لتنسى صراعاتها الطويلة معه ، فانتقلت للعمل فى قسم صحافة الجريمة ، وتتبّعت سلسلة جرائم قتل غامضة ، كان الدكتور (ألفريد) هو الطبيب الشرعى المعتمد فيها .

ولقد أدهشنى حقًا أن يقدم شخص عاقل على طلاق ملاك رقيق مثلها ..

وأدهشنى أكثر أن تعمل فى هذا المجال العنيف ، الذى جعلها تحضر بنفسها عملية فحص وتشريح جثة القتيل ، التى يعمل فيها والدها ، فى محاولة للحصول على نسخة من تقرير الفحص ، قبل أن يحصل عليها أى صحفى منافس ..

ومنذ ذلك الحين ، اقتربت أكثر وأكثر من الدكتور (ألفريد) وابنته (ديانا) ، التى تصاعد حبها فى قلبى وتضاعف عشرات المرات ، مع مرور الوقت ، وإن لم أجرؤ على الإفصاح عنه قط ،

مع فارق السن بيننا ، والذى يتجاوز العشرين عامًا دفعة واحدة ..

ولكن دعونا لا نتشعَّب فى روايتنا ، حتى لا نفقد طرف الخيط ، الذى التقطته فى صعوبة هذه المرة ..

ودعونا نعدْ إلى قصتنا ..

إلى البداية ..

ولقد كانت البداية ، كما سبق أن أخبرتكم ، منذ عام تقريبًا ، فى واحدة من ليالى الشتاء فى (لندن) ، التى تنخفض فيها درجة الحرارة إلى ما يقرب من الصفر ، وتتساقط الثلوج لتغمر الطرقات ، وأسطح المنازل وأسقف السيارات ..

وفى تلك الليلة أشعلت النيران فى المدفأة ، وجلست إلى جوارها ، أطالع بعض الكتب الحديثة ، عندما دق جرس الباب ثلاث دقات متتالية ، فارتفع حاجباى فى دهشة ، وأنا أغمغم :

ــ عجبًا ! .. إنها دقات الدكتور (ألفريد) المميَّزة .. كيف أتى فى مثل هذا الطقس ؟

شعرت بقلق حقيقى ، وأنا أهرع إلى الباب وأفتحه ، ولكن دهشتى تضاعفت بشدة ، عندما رأيت الدكتور (ألفريد) أمامى ، فى معطفه السميك ، وهو يحمل صندوقًا متوسط الحجم وابتسامة كبيرة مبتهجة ، ويقول فى جذل :

ــ مفاجأة .. أليس كذلك ؟

أفسحت له الطريق ، وأنا أقول فى حيرة :

ــ بلى .. إنك لم تعتد زيارتى دون اتصال مسبق .

نفض الثلج عن معطفه ، وهو يقول فى جذل عجيب :

ــ لقد تعمَّدت ألا أفعل ، حتى تكون المفاجأة كاملة .

سألته وبصرى يفحص الصندوق الذى يحمله :

ــ أية مفاجأة ؟!

لوَّح بالصندوق ، قائلا فى سعادة جمة :

ــ لقد هزمتك هذه المرة .

سألته ، وهو يخلع معطفه .

ــ فيم ؟

أسرع بالصندوق إلى المائدة التى تتوسَّط الردهة ، وهو يقول :

ــ فى سباق النماذج .. لقد حصلت على أفضل نموذج سيارة فى الدنيا .

خفق قلبى فى عنف ، وأنا أعدو خلفه ، وأسأله فى لهفة :

ــ حقًا ؟! .. وأين هو ؟

فضَّ غلاف الصندوق فى سرعة ، ومدَّ يديه داخله فى حرص ، ليخرج نموذجًا لسيَّارة حديثة ، من طراز (مرسيدس) ، لا يتجاوز طوله الأربعين سنتيمترًا على الأكثر ..

واتسعت عيناى فى دهشة وانبهار ..

لقد كان ما أراه أمامى أفضل نموذج سيارة رأيته فى حياتى كلها ..

أفضلها على الإطلاق ..

كل شىء فيه كان تحفة غير مسبوقة ، ومطابقة تماما للأجزاء الحقيقية للسيارة (المرسيدس) ..

الإطارات ..

المصابيح الأمامية ..

وحتى مساحات الزجاج ..

وفى انبهار تام ، هتفت :

ـ من أين حصلت على هذه التحفة ؟

قهقه الدكتور (ألفريد) ضاحكًا فى سعادة ظافرة ، وهو يقول :

ـ إنك لم تر شيئًا بعد .. انظر ..

وأخرج من جيبه عدسة كبيرة ، وهو يداعب باب السيارة بطرف إظفره ، ويفتحه ، وناولنى العدسة ، وهو يشير إلى داخل السيارة ، قائلاً :

ـ انظر إلى دقة الصنع المذهلة .. ذراع السرعة الآلى ، وتابلوه السيارة ، وحتى أحزمة الأمان .. كل شىء موجود فى موضعه ، وبنفس الخامات ..

كاد قلبى يذوب انبهارًا ، وأنا أتطلع إلى ذلك النموذج المبهر ، وسألته بصوت متهدّج ملهوف :

ـ كم دفعت ثمنًا له ؟

تراجع بابتسامة مزهوة ، وهو يجيب بسؤال آخر :

ـ كم يستحق فى رأيك ؟

اعتدلت قائلاً فى حماس :

ـ ثروة .. إننى مستعد لدفع أى مبلغ من المال ، مقابل نموذج كهذا .

أومأ برأسه موافقًا فى سعادة ، قبل أن يجيب :



ـ وهذا ما فعلته أنا .. هذا النموذج الذى تمسك به يساوى خمسة آلاف جنيه استرلينى .

شهقت لهول المبلغ ، الذى يساوى ثمن سيارة حقيقية صغيرة ، وعدت أتأمّل النموذج فى انبهار ، وأنا أردّد :

ـ خمسةَ آلاف جنيه دفعةً واحدة ؟!

كان النموذج شديد الدقّة بالفعل ، إلى درجة الإتقان ، وكان يستحق المبلغ ، على الرغم من ضخامته ، فلم أر فى حياتى كلها

شيئا مثله ، حتى أننى تساءلت عن ذلك الصانع الماهر ، الذى يستطيع إنتاج لعبة بهذا الإعجاز التقنى ، تبلغ حد الكمال فى مجالها ، لدرجة أنك تستطيع رؤية كل تفاصيل المحرك ، وآلات الحركة ..

وكل شىء متقن بدرجة مذهلة ..

وعدت أردد فى خفوت ، وكأننى أفكر بصوت مسموع :

ـ خمسة آلاف جنيه .

ابتسم (ألفريد) فى سعادة أكبر ، وهو يقول :

ـ إنها تحفة فريدة ، وتستحق المبلغ ، ما دام المرء قادرا على دفعه ..

وكان على حق تمامًا فى قوله ..

صحيح أن المبلغ ضخم للغاية ، إلا أن مدخراتى تفوقه بعشر مرات على الأقل ، إلى جوار دخلى الكبير من مؤسسة التكنولوجيا الأوروبية ، التى أعمل فيها كمستشار فيزيائى ، منذ أكثر من عشر سنوات ..

ثم إنك لا تستطيع مقاومة الرغبة فى الحصول على شىء كهذا ..

وفى لهفة واهتمام ، التفتَ إلى (ألفريد) ، أسأله :

ـ من أين حصلت عليه ؟

استعاد النموذج فى حرص ، وهو يجيب فى زهو :

ـ لقد وصلنى عرض بالبريد ، باعتبارى أحد الأعضاء البارزين ، فى جمعية هواة نماذج السيارات ، وعندما ذهبت لزيارة

صاحب العرض ، لم أستطع مقاومة الشراء .

قلت فى دهشة :

ـ عجبًا ! .. ولماذا لم يصلنى عرض مماثل ؟! .. أنا أيضا عضو بارز فى الجمعية نفسها ..

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ لست أدرى . ولكن مستر (جورج) أخبرنى أنه انتخبنى من بين أعضاء الجمعية ، ليعرض علىّ نماذجه ، بحيث أصبح وسيطا ، بينه وبين من أرشحه له من الأعضاء الآخرين .

قلت ، وأنا أشعر بشىء من الغيرة :

ـ ولماذا أنت بالذات ؟ .. وكيف توصّل إليك ؟

ابتسم فى خبث ، وكأنما شمَ رائحة الغيرة من نبرات صوتى ، وقال :

ـ ربما انتخبنى بوساطة الكمبيوتر . أنت تعرف هذه الأجهزة .. إنها تنتشر الآن فى كل مكان ، وأى شخص ذكى يمكنه استغلالها لمعرفة أى شىء يريده .. ألم تقرأ ذلك الخبر ، عن الصبى الذى نجح فى اختراق كمبيوتر شبكة الدفاع ، وحصل على معلومات سرية بالغة الخطورة (*) ؟!

راقبته وهو يعيد النموذج إلى صندوقه ، وشعرت فى أعماقى بالحسد ، لأن منافسى فى هوايتى الأثيرة قد حصل على شىء مثله ، فانهارت مقاومتى على الفور ، وهتفت كطفل صغير :

(*) واقعة حقيقية .

ـ أريد نموذجا مثله .

اتسعت ابتسامة (ألفريد) ، حتى خيل إلىّ أنه سينفجر ضاحكا ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. سأخبر مستر (جورج) .

قلت فى عصبية :

ـ ولماذا لا تعطينى عنوانه فحسب ؟

هزّ كتفيه مرة أخرى ، وهو يحمل الصندوق تحت أبطه ، قائلا :

ـ الرجل لا يسعى للانتشار والشهرة ، وإلا لأعلن عن بضاعته فى الصحف ، وكان هذا كفيلا بأن يحقق له ثروة طائلة لو فعل .. إنه ، كما أخبرنى ، لا يرغب فى بيع نماذجه ، إلا لمن يدرك قيمتها الحقيقية .

ثم لوّح بسبّابته ، وهو يضيف فى حماس :

ـ إنه ليس مجرّد تاجر .. إنه فنّان .. فنّان حقيقى .

قالها ، وانصرف دون أن يضيف الكثير ، وتركنى خلفه أكاد أشتعل لهفة وغيرة ، وأترقّب فى شوق وقلة صبر تلك اللحظة التى ألتقى فيها بمستر (جورج) .

ذلك الصانع العبقرى ..

صانع اللُعب .

* * *

٣ ـ مستر (جورج) ..

حدث ذلك اللقاء بعد أسبوع كامل ..

أسبوع كامل لم يعد لى من أمل سوى أن أحصل على نموذج مشابه لذلك الذى حصل عليه (ألفريد) ..

وطوال ذلك الأسبوع ، رحت أعيد فحص كل ما لدى من نماذج عشرات المرات ..

وبالذات تلك الأكثر دقة وأناقة ..

كانت لدى بعض نماذج السيارات القديمة ، تفخر الشركات المنتجة لها بأنها من أفضل وأدق النماذج الموجودة بالأسواق ، ولكنها كانت ، على الرغم من دقتها المدهشة تكاد تبدو أشبه بلعبة رخيصة ، إلى جوار الإتقان المذهل ، الذى رأيته فى نموذج (المرسيدس) ..



وكان هذا يزيدنى لهفة وتوترًا ..

وأخيرًا ، اتصل بى (ألفريد) ، وقال فى سعادة :

ــ حصلت لك على موعد معه .

قفزت من مقعدى فى سعادة جمة ، وأنا أصرخ :

ــ حقًا ؟! .. متى ؟ وأين ؟

ضحك وهو يجيب :

ــ غدًا صباحًا ، فى متجره العتيق فى (وست مينستر) .

كان قلبى يرقص طربًا طوال الليل ، وكأننى فى سبيلى للقاء معشوقة قديمة ، طال شوقى إليها ، واستيقظت فى الصباح الباكر ، ورحت أتطلع إلى ساعتى كل دقيقة ، وبدا لى وكأن الزمن يمضى فى بطء مثير للحنق ، وتمنيت لو استطعت دفع عقارب الساعة إلى الأمام ، ليحين الموعد المنشود ..

وفى الثامنة والنصف بالضبط ، كنت أقف أمام منزل (ألفريد) ، الذى قهقه ضاحكًا ، وهو يدلف إلى سيارتى ، قائلاً :

ــ كنت أعلم أنك ستصل فى موعدك بالضبط .

أجبته ، دون أن أحاول إخفاء لهفتى :

ــ كان بإمكانى أن أصل قبل هذا ، فالشوارع خالية تقريبًا .

هزّ كتفيه ، وهو يقول :

ــ أمر طبيعى .. إنه يوم الأحد .

لم أكد أسمع جوابه هذا ، حتى قفزت دهشتى إلى الذروة ..

كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل ؟! ..

إنه يوم الأحد بالفعل ..

وهذا أمر عجيب للغاية ..

ولو أردت أن تدرك مدى عجبه ، فعليك أن تعرف شيئًا عن طبيعة يوم الأحد ، فى حياة البريطانيين ..

إنهم من الشعوب التى تحترم يوم الإجازة الأسبوعية إلى حد مدهش ، فمن المستحيل تقريبًا أن تجد متجرًا واحدًا يعمل فى ذلك اليوم ، مهما كانت الأسباب ..

(لندن) كلها تبدو أشبه بمدينة للموتى فى يوم الأحد ، حيث يغادرها أكثر من سبعين فى المائة مَن سكانها ، إلى الحدائق والضواحى ، للاستمتاع بيوم الإجازة ، فى حين يبقى الثلاثون فى المائة الباقون داخل منازلهم ، يسترخون أمام (التليفزيون) ، أو يدعون أبناءهم وأحفادهم لتناول طعام الغداء ..

ولهذا أدهشنى أن يختار مستر (جورج) يوم الأحد بالذات للقاء ..

ولقد نقلت دهشتى هذه إلى (ألفريد) فابتسم مجيبًا :

ــ أعتقد أنه يتعمَّد هذا ، فقد التقى بى أيضًا فى أحد أيام الأحد .. إنه يعتبر عمله سريًا وخاصًا ، ولا يحب أن يزاوله فى الأيام العادية .

سألته فى اهتمام :

ــ ما نوع المتجر الذى يمتلكه مستر (جورج) بالضبط ؟

أجاب فى هدوء :

ــ متجر لبيع لعب الأطفال .. إنه رجل عجوز ، من ذلك الطراز العتيق ، الذى يصنع بعض اللُعب الخشبية ونماذج الدمى

الصغيرة ، المصنوعة من القماش والورق .

قلت في اهتمام :

ــ لابد أنها تحف رائعة .

هزّ رأسه نفيًا ، قبل أن يجيب :

ــ إنها ليست كذلك على الإطلاق . وهذا ما يثير دهشتى .

سألته فى حيرة :

ــ كيف ؟!

مطّ شفتيه ، وهو يجيب :

ــ انتظر ، وسترى بنفسك .

كان هذا الجواب يزيدنى توترًا وفضولاً ، إلا أننى كتمت شغفى فى أعماقى ، ورحت أقطع الشوارع الخالية ، حتى بلغت متجر (جورج) العتيق ، فى (وست مينستر) ، والذى يحمل اسم (لُعب مستر جورج) ، وعندما توقّفت أمام بابه الكبير المغلق ، أشار (ألفريد) بسبّابته ، وقال :

ــ ليس من هنا .. سندخل من الباب الخلفى ، فى هذا الشارع الجانبى .

أدهشتنى تلك الإجراءات المعقّدة ، التى يتخذها مستر (جورج) هذا ، وكأنه أحد تجار المخدرات ، ولكننى أطعت تعليمات (ألفريد) ، ودخلت ذلك الشارع الجانبي الصغير ، واتجهت مع صديقى إلى باب من خشب البلوط ، عُلّقتْ به دمية صغيرة ، فدقّه (ألفريد) دقتين متباعدتين ، ووقف ينتظر ..

ومضت لحظات ثقيلة من الصمت والسكون ، بدت لى من شدة لهفتى ، وكأنها أيام طوال ، قبل أن ينفتح الباب فى بطء ، ويظهر من خلفه وجه مستر (جورج) ..

كان شيخًا فى السبعين من عمره على الأقل ، أصلع الرأس ، أشيب الفودين ، متغضّن الوجه ، قصير القامة ، يرتدى منظارًا طبيًا سميكا ، ذا إطار معدنى رفيع ، ويتطلّع إلينا من خلفه بعينين نفّاذتين صارمتين ، شعرت بهما تفحصانى جيدًا ، قبل أن يقدمنى له (ألفريد) ، قائلاً :

ــ صديقى (نظمى) ، الذى حدّثتك عنه .

مطّ (جورج) شفتيه ، وهو يواصل تفحّصه لى فى صمت ، قبل أن يشير بيده فى صرامة ، قائلاً :

ــ ادخلا .

تبعناه إلى ممر ضيق قصير ، قادنا إلى صالة العرض الواسعة ، حيث تراصت مئات الأنواع من لُعب الأطفال ، لمختلف الأعمار والفئات ، وأشار (ألفريد) إلى مائدة خاصة ، تتوسّط الصالة الواسعة ، وهو يقول :

ــ إنتاج مستر (جورج) .

كدت أصرخ من فرط الدهشة ، وأنا أُحدّق فى تلك الدمى الخشبية ، التى اشتهر مستر (جورج) بصنعها ..

كانت مجرّد نماذج بسيطة ، غير متقنة الصنع ، ولا تساوى فى نظرى ما يزيد على جنيه استرلينى واحد ، وبينها بعض النماذج البدائية للسيارات القديمة ، لا يمكننى وضعها وسط

مجموعاتى ، حتى ولو تلقيتها كهدية مجانية ..

وفى دهشة ، همست فى أذن (ألفريد) :

ــ مستحيل ! .. كيف يصنع شخص واحد نماذج حقيرة كهذه ، ونموذج مذهل كذلك الذى رأيناه ؟

ابتسم (ألفريد) ، وهو يجيب هامسًا :

ــ لا تسألنى ، فلم أعثر على الجواب أبدًا .

زمجر مستر (جورج) ، وهو يقول فى خشونة غليظة :

ــ فيم تتهامسان ؟

أجبته فى سرعة :

ــ كنا نتساءل : متى نرى نماذجك المدهشة ؟

أجابنى فى غلظة :

ــ لا تتعجَّل .

وانحرف بنا إلى ممر جانبى ، قادنا إلى سلم ضيق ، هبطنا فيه عشر درجات ، قبل أن نتوقَّف أمام باب كبير فى القبو ، عليه رتاج كبير وقفل ضخم ، فتحه مستر (جورج) فى بطء مستفز ، قبل أن يضىء حجرة صغيرة ، لا تتناسب أبدًا وحجم الباب ، وهو يقول بخشونته الغليظة :

ــ ها هى ذى .

وكدت أصرخ هذه المرة ، من فرط الانفعال ..

فأمامى مباشرة ، وفوق عدد قليل من الأرفف الخشبية رديئة الصنع ، كانت تستقر أروع مجموعة نماذج سيارات رأيتها فى عمرى كله ..

(أوبل) .. (فيرارى) .. (مازدا) .. (تويوتا) .. (فيات) .. كل أنواع السيارات تقريبًا ..

وفى انبهار منقطع النظير ، أقبلت على تلك المجموعة الفريدة ، ورحت أفحصها فى شغف شديد ، وأنا ألهث انفعالا ..

وكانت كلها على نفس الدرجة من الإتقان المذهل ، الذى رأيته فى نموذج (المرسيدس) ، الذى ابتاعه (ألفريد) ..

كل التفاصيل موجودة بدقة مذهلة ..

كلها ..

وفى حماس شديد ، هتفت :

ــ كيف يمكنك صنع هذه التحف ؟

زمجر مستر (جورج) ، وأجاب فى خشونة :

ــ ليس هذا من شأنك .

كانت إجابة فظة ، تتناسب مع طبيعة الرجل وشخصيته ، وهو يستطرد فى عصبية ونفاد صبر .

ــ أيها تختار ؟

كان السؤال ، على الرغم من بساطته ، مربكًا ومحيرًا إلى حد كبير ، فلقد بدا لى ، وأنا داخل تلك الحجرة الصغيرة ، أننى داخل مغارة (على بابا) (*) ، وحولى كنوز الدنيا كلها ، فكيف أختار من بينها شيئًا واحدًا ؟! ..

(*) على بابا : واحدة من قصص التراث الشعبى ، تتحدث عن حطاب فقير ، عثر بالمصادفة على كنز الأربعين لصًا ، واستولى عليه لنفسه ، فحاول اللصوص الانتقام منه ، بالتعاون مع شقيقه (قاسم) ، وهى مجهولة المؤلف ، كمعظم القصص الشعبى ، وتنسب خطأً إلى (ألف ليلة وليلة) .

ولو طاوعت لهفتى الشديدة ، فى تلك اللحظات ، لأنفقت مدخراتى كلها لشراء هذه النماذج كلها ، ولكن من حسن الحظ أن بقيت فى رأسى أضغاث حكمة ، جعلتنى أتماسك أمام الإغراء القوى ، وأشير إلى سيارة من طراز (تويوتا) ، قائلاً :

ـ هذه .

مطّ شفتيه الجافتين دون مبرر ، وهو يتجه نحو النموذج ، والتقطه فى غلظة كاد ينفرط لها قلبى ، ثم جذب صندوقًا خاليًا ، ووضعه داخله ، وهو يقول فى لهجة صارمة تحذيرية .

ـ خمسة آلاف جنية .. نقدًا وفورًا .

كنت مستعدًا بالمبلغ ، فنقدته إياه على الفور ، والتقطت الصندوق فى حرص ولهفة ، وأنا لا أصدّق أننى حصلت على هذه التحفة الفريدة ، فى حين قال مستر (جورج) فى صرامة حادة :

ـ بقى أمر واحد .. إياك أن تخبر أى مخلوق بما رأيته هنا ، إلا بعد الرجوع إلىّ .. هل تفهم ؟!

أومأت برأسى إيجابًا ، على الرغم من حيرتى الشديدة لهذا المطلب العجيب ، فزمجر الرجل ، وقال فى حدة :

ـ لم أسمع صوتك .

أجبته فى خفوت :

ـ أعدك ألا أخبر أى مخلوق .

عاد يمطّ شفتيه ، وهو يغمغم فى ازدراء :

ـ تعدنى ؟! .. ومن يثق فى وعد أجنبى ؟

انعقد حاجباى فى غضب ، وأنا أقول :

ـ أنا مصرى عربى يا مستر (جورج) ، وأعتقد أننا أكثر من يحترم وعوده .

مطّ شفتيه مرة أخرى ، ولوّح بيده على نحو جعلنى أهم بالانفجار فى وجهه غاضبًا ، لولا أن أمسك (ألفريد) يدى فى قوة ، وهو يقول :

ـ فليكن يا مستر (جورج) .. لن نخبر أحدًا ..

ثم جذبنى فى قوة إلى خارج المتجر ، وصفق مستر (جورج) هذا الباب الخشبى خلفنا فى شىء من العنف المستفز ، ولكن (ألفريد) ضحك ، قائلاً :

ـ لا تأبه به .. إنه شيخ مخرّف ..

وضعت صندوق النموذج فى سيارتى بمنتهى العناية ، وأنا أقول :

ـ شيخ مخرّف يصنع تحفًا كهذه ؟!.

هزّ (ألفريد) رأسه ، ونحن ننطلق بالسيارة ، وقال :

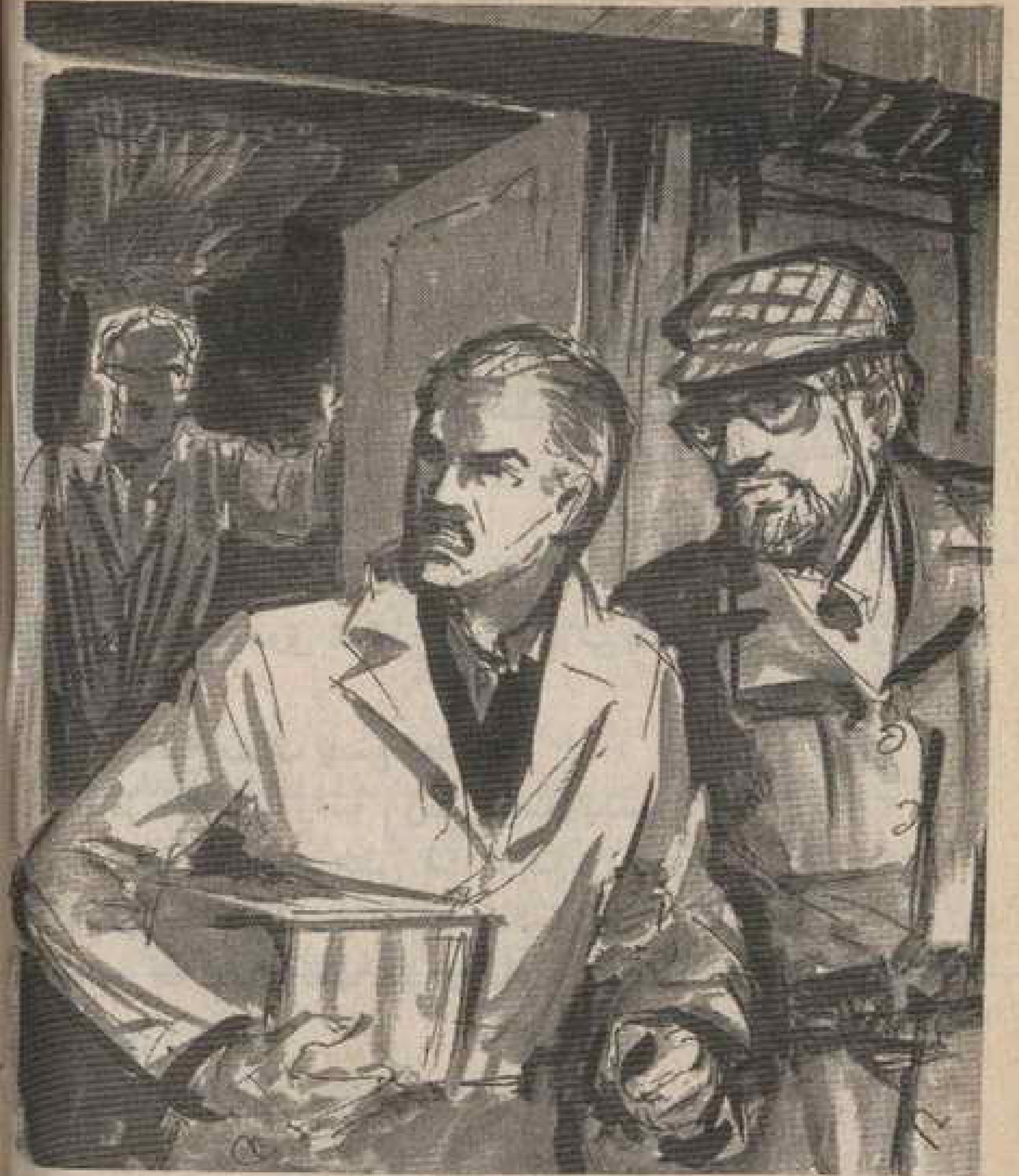
ـ ما زال هذا يدهشنى فى الواقع ، فالدمى السخيفة ، التى يصنعها هذا الرجل ، لا تتناسب أبدًا مع نماذج السيارات الرائعة هذه .. إنه صانع لُعب تقليدى للغاية ، فكيف يمكنه إنتاج هذه الروائع ؟

برزت فكرة ما فى ذهنى بغتة ، فهتفت :

ـ ربما لا يكون هو صانعها .

التفت إلىّ (ألفريد) فى دهشة ، فتابعت فى حماس :

ـ ربما يصنعها شخص آخر ، لا يميل إلى الإفصاح عن نفسه



ثم جذبنى فى قوة إلى خارج المتجر ، وصفق مستر (جورج) هذا الباب الخشبى خلفنا فى شىء من العنف ..

ويستغل مستر (جورج) المأفون هذا لِبيعها ، بصفته صانع لُعب قديم .. وربما كان هذا سر تلك التعقيدات ، التى يحيط بها الشيخ الأمر .

التقى حاجبا (ألفريد) ، وهو يومئ برأسه ، ويقول فى اهتمام :

ـ تفسير رائع يا (نظمى) .. تفسير منطقى وجيد بالفعل .. وأعتقد أن صانع اللعب الحقيقى من النبلاء ، الذين يخجلون من إعلان عملهم هذا ، فيستغلون الآخرين لتسويق منتجاتهم .. نعم .. إننى أميل إلى هذا الاستنتاج بشدة .

واسترخى فى مقعده فى ارتياح ، قبل أن يستطرد :

ـ ويمكننا أن نناقشه أكثر ، ونحن نتناول الشاى فى منزلى .

ابتسمت وأنا أسأله :

ـ هل تدعونى لتناول الشاى ؟

رفع سبابته ، مجيبًا فى سرعة :

ـ بل أدعوك لتناول طعام الغداء معى .

وقبل أن أفتح شفتىَّ للاعتذار ، استدرك فى خبث :

ـ (ديانا) ستأتى أيضًا .

أربكنى أسلوبه فى نطق العبارة ، والضحكة القصيرة التى ختمها بها ، فتضرَّج وجهى بحمرة الخجل ، وتمتمت :

ـ فليكن .. إننى أقبل دعوتك .

أجاب فى سرعة ، وبنفس النبرة الخبيثة :

ـ كنت أعلم هذا .

نطقها ، وربّت على ركبتى ضاحكا ، على نحو زاد من خجلى وارتباكى ، إلا أننى لم أستطع مقاومة لهفتى لرؤيتها ، فقد مضت عدة أسابيع ، منذ التقيت بها للمرة الأخيرة ، وشوقى إليها يبلغ مبلغه ..

ولكننى لم أتصوّر أن (ألفريد) يشعر بهذا ، وأن حبى لها مكشوف مفضوح إلى هذا الحد ..

حقًا .. لقد صدق الشاعر الذى قال :

« الصبّ تفضحه عيونه » .

وفى منزل (ألفريد) ، أخرجت نموذج (التويوتا) فى لهفة ، وأخرجت عدستى لأفحصه فى شغف ، وصديقى يقول :

ــ إنه لا يقلّ روعة ودقة عن نموذج (المرسيدس) .

كانت فرحتى غامرة ، وأنا أفحص داخل السيارة ، قائلاً :

ــ انظر يا (ألفريد) .. انظر إلى الدقة المدهشة .. انظر إلى المقاعد الخلفية ، والإطارات ، والتابلوه .. يا للدقة والروعة !!

انهمك معى فى فحص النموذج ، قبل أن تقاطعنا صيحة مرحة :

ــ أنت هنا .. يا للمفاجأة !

لم أكد أسمع صوتها الرقيق الجميل ، وتلك الموسيقى الأنثوية العذبة ، التى تعزفها أوتـار حنجرتهـا الناعمـة ، حتـى نسيت النموذج ورقته ، وروعة صنعه ..

بل نسيت مستر (جورج) نفسه ، وأنا ألتفت إليها ، هاتفًا :

ــ (ديانا) .

خفق قلبى فى عنف ، عندما لمحت تلك السعـادة فى ملامحها

وعينيها ، وهى تقبل علىّ ، هاتفة :

ــ كيف حالك يا (نظمى) ! .. اشتقت إليك كثيرًا .

لم أصدّق نفسى ، مع نبرة الشوق فى صوتها ، واحتضنت كفها الرقيقة الممدودة نحوى بأصابعى ، وغصت ببصرى فى بحر عينيها الزرقاوين ، وغرقت فيهما بضع لحظـات ، قبل أن أهمس بصوت متهدّج :

ــ أنا اشتقت إليك أكثر .

ارتفع حاجباها ، وهى تقول فى رقة مدهشة :

ــ حقًا !

كانت المرة الأولى ، التى أدرك فيهـا أنهـا تشاركنى المشاعر نفسها ..

المرة الأولى ، التى يخفق فيها قلبى فى ثقة وسعادة ..

إذن فهى أيضًا تحبنى ..

لقد فزت بقلبها دون أن أدرى ..

يدها الرقيقة ، التى استكانت دافئة فى راحتى تقرّ بذلك ..

السعادة المطلة من عينيها الجميلتين تعترف بهذا ..

ــ « احم .. أنا هنا .. » .

نطقها (ألفريد) بابتسامة كبيرة ، فـانتفض جسدى ، وتركت يدها بسرعة ، وتضرّج وجهى بحمرة الخجـل ، فـى حين ضحكت (ديانا) فى بساطة ، وهى تقول :

ــ ومن ينساك يا أفضل الآباء !

قبّلت وجنتيه فى مرح ، وطبـع هو قبلة حانيـة على جبينها ،

قبل أن يقول مبتسمًا :

ــ هل تعلميـن ؟.. لقد حصل (نظمـى) علـى نمـوذج ممـاثل لنموذجى الرائع .

هتفت فى سعادة :

ــ حقًا ؟! .. وأين هو ؟

أشار إلى النموذج ، فارتفع حاجباها ، وهى تقول :

ــ آه .. (تويوتا) قرمزية .. إنها طرازى المفضّل .

ثم انحنت تفحص النموذج عن قرب ، مستطردة بابتسـامة كبيرة :

ــ إنها تشبه تمامًا تلك الـ .....

بترت عبارتها بغتة ، وتلاشت ابتسامتها ، وتراجعت فى عنف ، وهى تطلق شهقة قوية عنيفة ..

شهقة حملت نفس الملامح ، التى اكتسى بها وجهها ..

ملامح الذعر ..

الذعر بلا حدود ..

* * *

٤ ــ اللغز ..

أدهشنى موقف (ديانا) بشدة ..

بل يمكنك أن تقول : إنه صدمنى ..

لقد تراجعت فى ذعر هائل ، ثم مادت بها الأرض ، وترنحت ، فأسرعت ألتقطها بين ذراعىّ ، وأنا أهتف فى ارتياع :

ــ (ديانا) .. ماذا أصابك ؟!

كانت ترتعد فى انفعال عجيب ، وعيناها الزائغتان تتطلّعان إلى السيارة ، وقد امتقع وجهها فـى شدة ، حتى صـار أشبه بوجـوه الموتى ، فى حين تجمّد والدها فى مكانـه ، الهلع يرسم نفسه بـأوضح صورة ، علـى كل خلجة مـن خلجاتـه ، فـانقبض قلبـى للموقف ، ورحت أكرّر :

ــ ماذا حدث يا (ديانا) ؟! .. ماذا حدث ؟

أشارت بسبّابة مرتجفة إلى نموذج السيّارة ، وهى تقول :

ــ إنها .. إنها سيارتى .

قلت فى دهشة :

ــ سيارتك ؟!

وهنا التقط (ألفريد) أنفاسه فى قوة ، على هيئة شهقة قوية ، قبل أن يقول :

ــ آه ! .. هذا هو السبب إذن .

لم تزدنى عبارته إلا حيرة وغموضًا ، فهتفت فى عصبية :

ــ أى سبب !

جفف عرقًا باردًا عن جبينه ، وهو يجيب :

ــ هذا النموذج يشبه تمامًا سيارتها ، التى فقدتها منذ بضعة أشهر ، واتهمت زوجها بالتحريض على سرقتها .

نقلت بصرى من النموذج إليها ، وأنا أغمغم :

ــ وهل يستحق الأمر كل هذا !! .. إنه مجرَّد تشابه فى الطراز واللون !

انتفضت (ديانا) بين ذراعىَّ ، وتملَّصت هاتفة :

ــ ليس مجرَّد تشابه عادى .

ثم اعتدلت ، وأشارت إلى رسم دقيق ، على الباب الأيسر للسيارة ، مستطردة فى انفعال عجيب :

ــ هذا الرسم يخصنى وحدى .

التقطت العدسة ، ورحت أفحص ذلك الرسم البسيط ، قبل أن أقول فى حيرة :

ــ ولكنه مجرَّد رسم عادى !

هزت رأسها نفيًا فى إصرار ، وهى تقول :

ــ ليس رسمًا عاديًا أبدًا .

ثم أشارت إلى صدرها ، مستطردة فى حدة :

ــ أنا رسمته بنفسى .

ارتفع حاجبىَّ فى دهشة بالغة ، وعدت أحدِّق فى الرسم الدقيق للغاية ، قبل أن أهزّ رأسى فى قوة ، قائلاً :

ــ مصادفة .. مجرَّد مصادفة بالتأكيد .

عقدت ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول فى عناد :

ــ لست أومن بالمصادفات .

التقى حاجبا (ألفريد) الكثين ، وهو يغمغم :

ــ هناك تفسير حتمًا .

تطلَّعت إلى نموذج السيارة لحظات ، ثم سألتها فجأة :

ــ كيف فقدت سيارتك ؟

حاولت أن تجيب ، إلا أن الانفعال جعل الكلمات تتعثَّر على شفتيها لحظةً ، قبل أن تقول :

ــ تركتها فى شارع قريب من ميدان (ترافلجار) (*) ، وبداخلها كلبى (ريكى) ، وتغيَّبت لساعة واحدة ، وعدت فلم أجد (ريكى) أو السيارة .

ولم تكد تنطق عبارتها الأخيرة ، حتى انفجرت باكية ، فهزَّ (ألفريد) رأسه فى أسى ، وغمغم :

ــ كانت تحب هذا الكلب بشدة ، وأصابتها صدمة عصبية عندما فقدته .

تنهَّدت فى شىء من التوتر ، وأنا أقول :

ــ إذن فرؤية النموذج أعادت إليك ذكرى كلبك الصغير المفقود .

صمتت لحظة ، ثم غمغمت :

ــ ربَّما .

واستدركت فى حدة :

(*) ترافلجار : ميدان شهير فى العاصمة البريطانية (لندن) ، اسمه مأخوذ عن كلمة (الطرف الأغر) ، وهى معركة بحرية فاصلة ، هزم فيها الأسطول البريطانى ، بقيادة (نلسون) ، الأسطولين الفرنسى والأسبانى ، ولكن (نلسون) أصيب ، ومات فى أثناء المعركة .

ـ ولكن وجود الرسم ليس مجرّد مصادفة .

تبادلت مع (ألفريد) نظرة حائرة ، قبل أن أغمغم :

ـ ألديك تفسير آخر ؟

قالت فى صرامة :

ـ ربما لا يكون لدىّ التفسير المناسب ، ولكننا سنجده لديه بالتأكيد .

عاد حاجبا (ألفريد) يلتقيان ، فى حين سألت أنا :

ـ لدى مَنْ ؟

ألقت نظرة متوترة على النموذج ، قبل أن تجيب :

ـ الصانع .

وعادت تعقد ساعديها أما صدرها ، مضيفة فى صرامة حازمة :

ـ صانع اللُعب ..

* * *

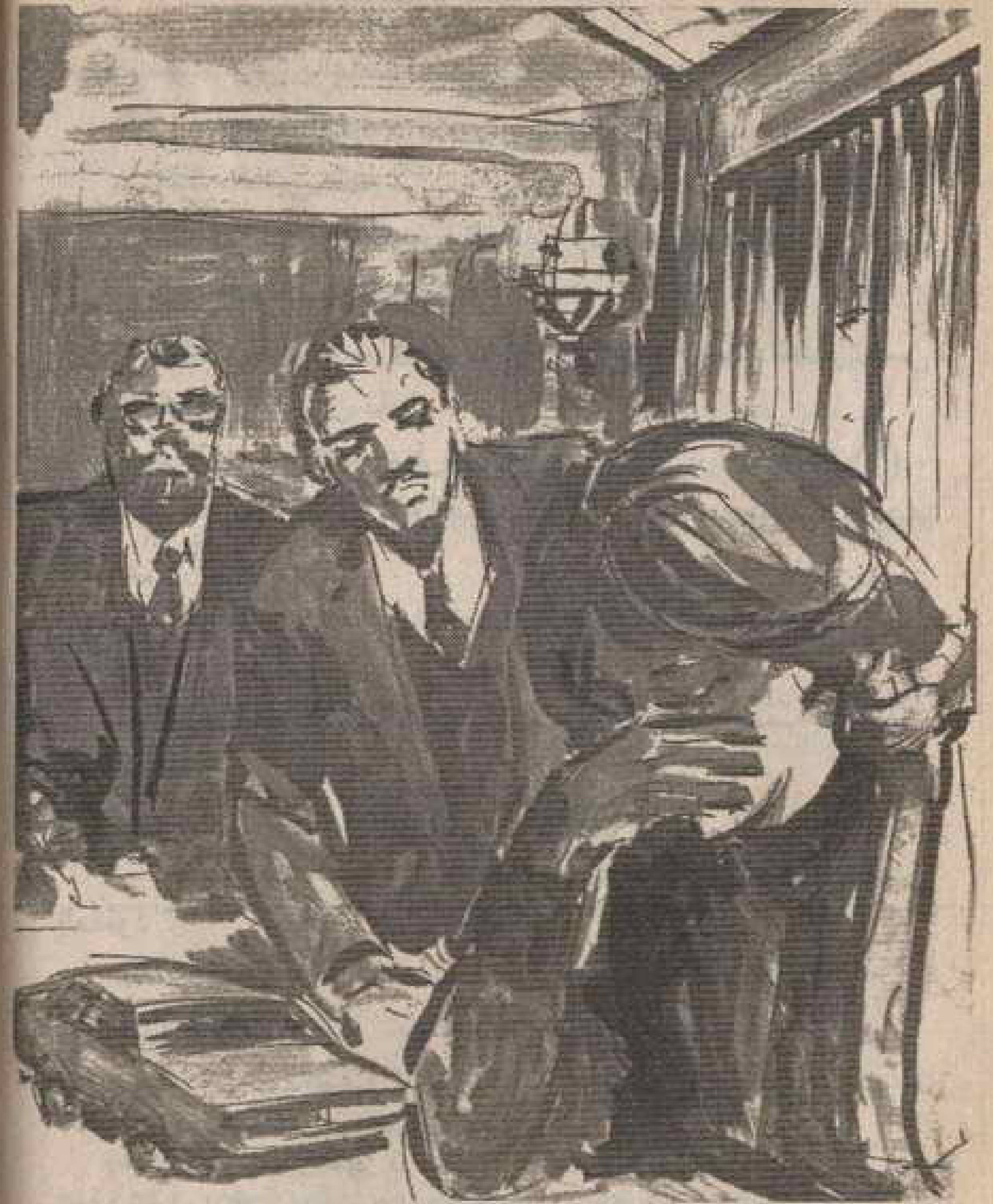
مطّ مستر (جورج) شفتيه فى ضيق واضح ، وهو ينقل بصره بينى وبين (ديانا) ، من خلف منظاره الصغير السميك ، قبل أن يسأل بأسلوبه الفظ الخشن :

ـ ماذا تريدان ؟

بدا التوتر على وجه (ديانا) وخُيِّل إلىّ أنها ستنفجر فى وجه الرجل ، فأسرعتَ أجيب :

ـ نحن هنا بخصوص النموذج .

انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :



ولم تكد تنطق عبارتها الأخيرة ، حتى انفجرت باكية ..

ـ أى نموذج !

اندفعت (ديانا) تجيب فى حدة :

ـ نموذج (التويوتا) القرمزية .

أدار (جورج) عينيه إلىّ فى بطء ، ورمقنى بنظرة غاضبة ، قبل أن يقول فى غلظة :

ـ ماذا عنه ؟

قالت فى صرامة :

ـ من أين حصلت عليه ؟

أجابها الرجل فى حدة :

ـ ليس هذا من شأنك .

لوّحت بسبّابتها فى وجهه ، صائحة :



ـ بل هو من شأنى .. إننى أعرف هذه السيارة .

أدهشتنى حدتها فى التعامل مع الرجل ، مع ما أعرفه عنها من رقة ، وأدركت أن الأمر يثير أعصابها بشدة ، ومن الممكن أن يتطوّر النقاش على نحو غير مرغوب ، فتدخلت قائلاً :

ـ الواقع أنه هناك مشكلة بخصوص هذا النموذج .

لوّح بيده فى عنف ، قائلاً :

ـ لا شأن لى بالمشكلات .. المفروض ألا تحضر أى شخص إلى هنا ، إلا بعد استشارتى ، أما النموذج ، فلو أنك لا ترغب فيه ، أعده إلىّ ، واسترد نقودك .

قلت بسرعة :

ـ ليست هذه هى المشكلة ، الواقع أن ..

وقبل أن أتمّ عبارتى ، اندفعت (ديانا) تقول :

ـ ذلك الرسم يخصنى .

تراجع مستر (جورج) بحركة عنيفة ، وامتزج حاجباه من شدة انعقادهما ، وهو يقول فى دهشة بالغة التوتر :

ـ الرسم ؟!

أجابته فى عصبية :

ـ نعم .. ذلك الرسم الدقيق على الباب الأيسر لنموذج (التويوتا) القرمزية .. لقد رسمت بنفسى ذلك الرسم ، على الباب الأيسر لسيارتى ، ذات الطراز واللون نفسه ، ثم فقدتها فجأة ، وأريد أن أعرف كيف نقلت الرسم إلى النموذج ؟.. من أين حصلت عليه بالضبط ؟

صمت مستر (جورج) تماما ، وهو يتطلع إليها ، وراحت أصابعه تنقر سطح مكتبه فى عصبية ، فكررت (ديانا) :

ـ من أين يا مستر (جورج) ؟

بدا عليه الحذر ، وهو يجيب فى بطء :

ـ ربما من صورة منشورة فى صحيفة ما ، أو ..

قاطعته فى شىء من البرود :

ـ لست أذكر أبدًا أن صورة سيارتى قد نشرت فى أى مكان .

ابتلع مستر (جورج) لسانه هذه المرة ، واحتقن وجهه بشدة ، قبل أن يقول فى خشونة عصبية فظة :

ـ ولا أنا أذكر شيئًا .. أنا شيخ طاعن فى السن ، وذاكرتى لم تعد على ما يرام .. لقد رأيت الرسم فى مكان ما ، ولكننى أجهل أين ومتى .

امتلأ وجهها بالغضب ، ولوّحت بسبّابتها فى وجهه ، صائحة :

ـ اسمع أيها الرجل .. هذا الكلام يصلح لتحقيقات الشرطة ، أما بالنسبة لى ..

قبل أن تتم عبارتها ، اندفعت أصابع قوية فجأة تقبض على معصمها ، وارتفعت فى المكان زمجرة غاضبة ، امتزجت بشهقة الرعب والفزع ، التى انطلقت من حنجرة (ديانا) ، وجعلتنى أستدير فى تحفز ، لمواجهة صاحب الأصابع القوية ..

ولكن الدماء تجمّدت كلها فى عروقى ، عندما وقع بصره عليه ..

إنه لم يكن شخصًا عاديًا ..

بل كان وحشًا ..

وحشًا بمعنى الكلمة ..

* * *

صرخت (ديانا) فى رعب أكثر وأكثر ، هى تحاول تخليص معصمها من أصابع ذلك المسخ الضخم ، الذى يتجاوز المترين طولا ، ونصفها عرضا ، والذى تشوهت ملامحه على نحو مخيف ، وانقلبت سحنته بشكل بشع ، وهو يطلق زمجرة تلو الأخرى ، فاستنفرت شجاعتى كلها ، وصحت فى وجهه ، وأنا ألوّح بقبضتى :

ـ اتركها يا هذا ، وإلا ..

قاطعنى صوت مستر (جورج) ، وهو يندفع من خلف مكتبه ، هاتفًا :

ـ رويدك يا (بندكت) .. رويدك .. إنها لم تكن تقصد شرًا .

زمجر ذلك المسخ مرة أخرى ، وكادت (ديانا) تفقد الوعى رعبًا ، أمام نظراته المخيفة ، ولكن مستر (جورج) كررّ فى شىء من الصرامة هذه المرة :

ـ اتركها يا (بندكت) .

نقل المسخ نظراته إليه لحظة ، ثم أفلت معصم (ديانا) ، التى ارتمت بين ذراعىّ ، وراحت تبكى فى حرارة ، فاحتويتها فى حنان ، وأنا أقول فى حدة :

ـ ما هذا يا مستر (جورج) ؟ .. يمكننى إبلاغ الشرطة ، نظير ما سببته لهذه المسكينة من رعب وفزع .

زمجر (بندكت) هذا مرة أخرى ، فى حين عدّل (جورج) منظاره الطبى الصغير فوق عينيه ، وهو يتمتم متوترا :

ـ لا داعى لهذا .. (بندكت) لا يقصد شرًا .. إنه صبى طيب .

هتفت (ديانا) فى استهجان :

ــ صبى ؟!

عاد مستر (جورج) يعدِّل وضع منظاره الطبى دون داعٍ ، وهو يقول فى توتر شديد :

ــ لا تنظرى إلى حجمه .. هذا الجسد الهائل يحمل عقل صبى صغير ، لا يتجاوز العاشرة من عمره .. وهذا أفضل ما يمكنه بلوغه ، فهو مصاب بتخلف عقلى خلقى منذ مولده ، ولم تنجح محاولات علاجه منه أبدًا .

سألته (ديانا) فى شىء من العصبية :

ــ كيف يعمل لديك إذن ؟

توتر مستر (جورج) أكثر ، وهو يقول :

ــ إنه لا يعمل لدى .

ثم أشاح بوجهه ، مستطردًا :

ــ إنه ابنى .

اتسعت عيوننا فى ذهول ، ونحن ننقل بصرينا بين مستر (جورج) بجسده الضئيل ، وذلك المسخ العملاق الواقف إلى جواره ، قبل أن تهتف (ديانا) :

ــ ابنك !؟.

أومأ مستر (جورج) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وران على المتجر صمت رهيب ثقيل ، ساعد على تعميقه خلو المكان من الروّاد ، ثم قطعته (ديانا) بغتةً ، وهى تسأل :

ــ من يصنع تلك النماذج ؟

حدّق فى وجهها بدهشة ، فتابعت فى صرامة ، وهى تشير إلى الدمى البسيطة ، التى اشتهر بصنعها :

ــ لا تحاول إقناعى بأن شخصًا مثلك ، اشتهر بصنع الدمى والنماذج الخشبية البسيطة ، يمكن أن يكتسب بغتةً موهبة مدهشة ، فيصنع تحفًا كهذه ، فى يوم وليلة .

احتقن وجه مستر (جورج) فى شدة ، وهى تميل نحوه ، مستطردة :

ــ من صانع اللُّعب الحقيقى يا مستر (جورج) ؟

خُيِّل إلىَّ أن سحابة كثيفة من الصمت قد هبطت على المكان ، وغمرته لدقيقة أو يزيد ، قبل أن يجيب مستر (جورج) فى صرامة :

ــ ليس هذا من شأنك .

توقَّعت أن تنفجر (ديانا) فى وجهه غاضبة ، إلا أنها تراجعت فى هدوء أدهشنى ، وهى تقول :

ــ فليكن .. اخف الأمر ما شئت يا مستر (جورج) ، ولكننى أعدك أن أتوصَّل إلى الحقيقة ، وإلى السر الذى تخفيه خلف هذه النماذج الدقيقة ، وعندئذ ..

لم تتمّ عبارتها ..

ولم تكن بحاجة إلى هذا ..

لقد تركت المعنى واضحًا ، معلقًا فى سماء الحجرة ، وهى تستدير وتغادر المتجر فى كبرياء مثير ، فتبعتها فى صمت ، وقد بدا لها أننى أراها لأوَّل مرة ، وأكشف جوانب من شخصيتها ، لم أنتبه إليها من قبل قط ..

ولم تكد سيارتى تنطلق بنا مبتعدة ، حتى قلت ، وأنا أختلس النظر إليها :

ـ لقد تعاملت مع الرجل بصرامة شديدة .

أجابتنى فى توتر :

ـ كان يستحق هذا .

ثم غاصت فى مقعدها ، مستطردة :

ـ ولو أردت رأيى ، فهذه النماذج البالغة الدقة تخفى خلفها جريمة ما .

والتفتت إلىّ ، مضيفة فى حزم :

ـ جريمة كبرى .

وعادت تغوص فى مقعدها أكثر وأكثر ..

* * *

« إنكِ تبالغين كثيرًا يا (ديانا) .. » .

هتف (ألفريد) بالعبارة ، بعد أن استمع إلينا طويلاً فى صبر ، ثم استطرد بابتسامة كبيرة كعادته :

ـ ربما يخفى مستر (جورج) عملاً غير قانونى ، خلف عملية صنع وبيع هذه النماذج المدهشة .. خداع لدائرة الجمارك ، أو تهرّب ضريبى على الأرجح ، ولكن الأمر لا يصل إلى حد الجريمة الكبرى ..

قالت فى اهتمام :

ـ لماذا يخفى ، وبإصرار ، اسم صانع اللُعب الحقيقى إذن ؟

لوّح (ألفريد) بيده ، وهو يقول :

ـ هناك ألف سبب لهذا .

ثم مال نحو ابنته ، واستطرد مبتسماً :

ـ يبدو أن عملك فى صفحة الجريمة قد ملأ عقلك بخيالات لا حصر لها ، ورحت ترين الجرائم الكبرى خلف كل عمل ..

انعقد حاجباها فى ضيق ، وهى تقول :

ـ هناك أمر آخر .

سألها فى اهتمام .

ـ وما هو ؟

أشارت إلى صدرها ، قائلة فى حسم :

ـ غريزة الأنثى .

ارتفع حاجباى فى دهشة ، فى حين انفجر (ألفريد) مقهقهًا فى مرح أغضبها ، قبل أن يلوّح بكفيه ، قائلاً :

ـ إنه عامل شديد الأهميةّ والخطورة بالفعل ، ولكن المشكلة أن المحاكم البريطانية كلها لا تعترف به كدليل حاسم .

هتفت معترضة :

ـ أبى .. هل تسخر منى ؟!

هزّ رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يجيب :

ـ أبدًا .. إننى أحاول إعادتك إلى أرض الواقع فحسب .

صمتت لحظات ، وهى تعقد حاجبيها فى غضب ، ثم نهضت قائلة :

ـ فليكن .. هل يمكنك أن توصلنى إلى منزلى يا دكتور (نظمى) ؟

هتفت فى سرعة وحماس :

ـ بالطبع .

غادرنا منزل والدها معًا ، دون أن نتبادل إلا أقل الكلمات ، ولاذت هى بالصمت التام ، طوال الطريق إلى منزلها ، وهى غارقة فى بحر من التفكير العميق ، ولكننا لم نكد نبلغ المنزل ، حتى التفتت إلىّ ، وقالت :

ـ دكتور (نظمى) .. هل تهتم بى حقًا ؟

باغتنى السؤال ، وجعل أطرافى ترتجف ، ولكننى أجبتها فى حماس :

ـ أكثر مما تتوقعين .

مالت نحوى ، وسألتنى في تردد :

ـ هل يمكنك أن تفعل شيئًا من أجلى إذن ؟

أجبت فى حسم واثق :

ـ أى شىء تطلبينه ..

وهنا تراجعت فى ارتياح ، قائلة :

ـ فليكن .. اصحبنى الليلة إذن إلى زيارة سرية ..

تراجعت ، قائلاً فى دهشة :

ـ زيارة سرية ؟! .. إلى أين ؟

تطلعت إلى عينىّ مباشرة ، وهى تجيب :

ـ إلى متجر مستر (جورج) .. صانع اللعب .

وكانت مفاجأة لى ..

مفاجأة عنيفة .

* * *

٥ ـ تسلُّل ..

تصاعد الانفعال فى أعماقى كثيرًا ، فى تلك الليلة ، وأنا أجلس فى انتظار وصول (ديانا) ، وبذلت جهدًا غير عادى ، للسيطرة على تلك القشعريرة الباردة ، التى تسرى فى أوصالى من فرط التوتر ، على الرغم من جلوسى أمام المدفأة ، منذ غروب الشمس .

كان ما تبتغيه (ديانا) يصيبنى بمزيج من الذعر والخوف والقلق ، لم يعد يتناسب مع ذلك الشيب الذى خط فودىّ ، وسرى فى خصلة كبيرة فى منتصف جبهتى ..

كيف يمكن لأستاذ جامعى وقور مثلى أن يخوض تجربة كهذه ، فيقتحم متجرًا بعد منتصف الليل ، وهو يرتدى حذاءً مطاطيًا ، ويحمل فى يده مصباحًا يدويًا ، ليبحث عن شىء يجهل ماهيته بالتحديد ؟!

ماذا لو كانت هناك أجهزة إنذار ، أو كاميرات مراقبة ؟! ..

وماذا لو كشفت الشرطة أمرنا ؟! ..

راحت عشرات الهواجس والأفكار تعربد فى رأسى ، وأنا أراقب عقارب الساعة ، وأكاد أتوسّل إليها ألا تمضى فى سبيلها إلى منتصف الليل ، حتى لا أضطر لخوض تلك المغامرة ، غير مأمونة العواقب ، مع (ديانا) ، التى أعجز عن رفض مطلبها ..

ولكن العقارب راحت تعاندنى ، فتسابقت مع بعضها ، وأخذت

تلتهم الوقت التهاماً فى شراهة ، كما يحدث فى مثل هذه الظروف ، وبدت وكأنها تخرج لى لسانها شامتة ، عندما التفت عند قمة الساعة ، التى ارتفعت دقاتها تعلن تمام منتصف الليل ..

وفى اللحظة نفسها ، ارتفع رنين جرس الباب ..

وعلى الرغم من أننى كنت أنتظر قدوم (ديانا) ، فى هذا الموعد بالتحديد ، إلا أن جسدى انتفض كله فى عنف ، مع رنين الجرس ، وهرعت إلى الباب وأنا أرتجف ، وفتحته ليطالعنى وجهها الرقيق الجميل ، وهى تقول فى حماس :

ــ هل تأخرت ؟

أجبتها بسرعة :

ــ بل وصلت فى موعدك تماماً .

كانت تبدو فاتنة ، وهى ترتدى صديرية من الصوف السميك الداكن ، وسروالاً من اللون نفسه ، وتغطى شعرها الناعم الطويل بطاقية من نفس نوع الصوف ، الذى صنعت منه قفازين ، اختفى داخلهما كفاها الرقيقين ..

وحاولت دعوتها للدخول ، وكأننى أسعى لإضاعة ، بعض الوقت ، ولكنها أجابتنى فى حماس :

ــ بل دعنا ننطلق على الفور .. لن أطيق الانتظار .

خرجت معها وأنا أسب وألعن ذلك الحب ، الذى يجبر المرء أحياناً على التخلى عن الكثير من عاداته وأنماطه ، وأدهشنى ذلك التناقض فى مشاعرنا ، فهى تنطلق نحو المتجر فى لهفة ، وكأنها فى طريقها إلى نزهة طريفة ، فى حين يبدو لى الأمر وكأننى فى طريقى إلى حجرة الإعدام ..

ولكن أيًا كان التناقض بيننا ، فقد وصلنا إلى المتجر ، بعد منتصف الليل بثلث الساعة بالتحديد ..

وكانت المنطقة كلها صامتة وساكنة تماماً ، فى هذا الوقت المتأخر ، وذلك الطقس الردىء ، فأوقفنا السيارة بعيداً ، وتسللنا إلى الشارع الخلفى ، وسألتها هامساً :

ــ كيف يمكننا الدخول .

غادرت السيارة ، وهى تقول فى حماس :

ــ اتبعنى .

تحركت فى خفة نحو نافذة جانبية ، وأخرجت من جيبها مدية سويسرية ، دفعت نصلها تحت الرتاج العتيق ، ثم رفعت النافذة فى يسر ، قائلة :

ــ هل يمكنك القفز عبر النافذة ؟

هتفت فى دهشة :

ــ كيف فعلت هذا ؟! ..

أجابت وهى تعبر النافذة فى جرأة :

ــ الصحفى يجيد مهارات شتى بالضرورة .

ترددت ، وأنا أسألها فى قلق :

ــ ألا تخشين وجود أجهزة إنذار ؟

ضحكت قائلة :

ــ هل رأيت فى حياتك كلها متجر لعب بسيط ، يضع أجهزة إنذار ؟

ترددت لحظة ، ثم تبعتها إلى الداخل ، وقلبى يخفق فى عنف ،

وخُيِّل إلىَّ أن كـل الدمـى المحيطـة بـى تحدِّق فـىَّ ، وأن الشرطة ستطبق على المكـان بعد لحظات ، وتحيط معصمـىَّ بـالأغلال ، وتصوَّرت مانشيتّات الصحف .. « أستاذ جامعى يُضبط متلبسًا بسرقة متجر لُعب عتيق .. » .

وعلى عكسى تمامًا ، كانت (ديانا) تتحرَّك فى المكـان ، بجرأة مدهشة ، وهى تسألنى فى اهتمام :

ــ أين يحتفظ بالنماذج ؟

أشرت إلى الممر الذى يقود إلى القبو ، وأنا أجيبُ :

ــ هناك .

اتجهت فى خطوات واسعة نحو الممر ، وأنا أهمس فـى توتـر شديد :

ــ ولكن هناك رتاج كبير ، وقفل ثقيل ، على بـاب الحجـرة ، التى يحتفظ فيها بالنماذج .

غمغمت فى اهتمام :

ــ لا تقلق .. ربما أمكننى التعامل مع ذلك القفل .

سألتها متوترًا فى عصبية :

ــ مـا طبيعـة عملك بالضبط ؟! .. أأنت واثقــة أنـه يتعلَّق بالصحافة ، وليس ...

قاطعتنى فى خفوت :

ــ قلت .. ربما .

ولم تكد تتم كلمتها ، ونحن نتحرَّك نحو الممر ، حتى انفتح باب المتجـر الخلفى ، وسمعنا صوت سعال مستر (جـورج) ، ووقع أقدام ثقيلة .

ثم اشتعلت الأضواء بغتة ، و ..

وغمرتنا تماما ..

* * *

لا يمكننـى أن أدعـى أننـى كنـت رابـط الجـأش ، أو متمـالك الأعصاب ، عندما غمرتنا الأضواء معًا ، ونحن داخل المتجر ..

الواقع أن جسدى كله انتفض فى هلع ، وكدت أصرخ مذعورًا ، وأرفع يدىَّ مستسلما ، ولكن مـن حسن حظـى أن الرعب جمَّدنـى تمامًا فى تلك اللحظة ، لأسمع (ديانا) تهمس فى انفعال :

ــ لا يمكنهما رؤيتنا ، من هذه الزاوية .

انتزعتنى عبارتهـا من رعبى وجمودى ، وعـاد النشـاط إلى أطرافى بغتة ، فأسرعت أتوارى خلف طاولة عرض كبيـرة ، وأنـا أهمس :

ــ تعالى هنا .

لحقت بى (ديانا) ، ورحنا نختلس النظر ، عبر فرجة ضيقة ، إلـى مستر (جـورج) بقامتـه الضئيلـة وظهره المنحنى ، وهـو يدلف إلى المكان مع ابنــه (بندكت) ، بسحنته المقلوبـة دائمًا ، وحجمـه الهـائل ، وكـان الأخير يحمل صندوقًا متوسط الحجـم ، والسعادة تبدو واضحة على وجهه المخيف ، فى حيـن كـان والـده يقول :

ــ نعم .. نموذج آخر جديد ، يضاف إلى المجموعة يا (بندى) .. لقد بعنا حتى الآن عشرة من هذه النماذج ، وحصلنا على خمسين ألف جنيه .

لوَّح (بندكت) بيده ، وهمهم بشىء أشبه بزمجرة عصبية ، فهزَّ مستر (جورج) رأسه نفيًا ، وقال فى أسى :

ــ كلاَّ للأسف .. لم نصل بعد إلى المبلغ الذى طلبه ذلك الطبيب الأمريكى ، ليجرى لك تلك الجراحة .

بدا الحزن على وجه (بندكت) ، فرسم (جورج) على وجهه ابتسامة ، وهو يعود للتربيت عليه ، قائلاً :

ــ لا .. لا تغضب .. عشرة نماذج أخرى ، ونحصل على المبلغ .. أنت تعرف هواة جمع هذه النماذج .. إنهم من الحماقة بحيث لن يستطيع الواحد منهم منع نفسه ، من الحصول على أكثر من نموذج ، على الرغم من السعر ، المرتفع .

انعقد حاجباى غضبًا لعبارته ، ولوَّحت بقبضتى فى عصبية ، ولكن (ديانا) أمسكت كفى وضغطته فى رفق حنون ، وكأنها تواسينى ، فسرى الدفء فى جسدى كله بغتة ، واختلج قلبى اختلاجة لم يفعل مثلها فى عمره كله ، حتى كدت أتجاهل ذلك الموقف الدقيق ، ووجود (جورج) ووحشه الصغير ، وأرفع يدها الرقيقة إلى شفتىَّ ، لألثمها ما تبقى من الليل .

ولكن شيئًا آخر جذب انتباهى بشدة ..

لقد راح (بندكت) يشير إلى الصندوق الذى يحمله ، ويلوِّح بيده ، ويتقافز على نحو عجيب ، وهو يهمهم بزمجراته الخافتة ، ويهزّ رأسه فى بطء ، وكأنما يتوسَّل لوالده أن يسمح له بفتحه ..

وفى شىء من الضجر ، أشار له (جورج) ، قائلاً :

ــ لا بأس يا (بندى) .. لا بأس .. يمكنك أن تلعب به قليلاً .

تهللت أسارير الوحش الصغير ، وراح يفتح الصندوق فى لهفة ، ثم أخرج منه نموذجًا مدهشًا ، لسيارة من طراز (بورش) ، وحمله فى عناية ، ليضعه فوق مائدة كبيرة ، وهو يطلق أصواتًا غريبة ، ويهتز فى طرب مدهش ..

وبابتسامة حنون ، قال له (جورج) :

ــ المهم أن تحافظ عليه جيدًا .. إننا نحتاج إلى كل نموذج .

كان قلبى ينبض فى عنف ، وأنا أراقب النموذج ، فى يد ذلك الصبى العملاق ، الذى يلعب به فى سعادة ، كما لو كان لعبة عادية بسيطة ، ووالده يراقبه فى صمت ..

وفجأة ، انحنى (بندكت) ، وحدَّق فى النموذج فى دهشة بالغة ، قبل أن يلقيه فوق المائدة ، ويتراجع مطلقًا ما يشبه الصرخة ، فاندفع إليه (جورج) ، هاتفًا :

ــ ماذا هناك ؟

كان (بندكت) يولينا ظهره ، ويخفى نصف المائدة بجسده الضخم ، فلم نر ذلك الشىء ، الذى اتسعت عينا (جورج) وهو يحدَّق فيه ، ويهتف :

ــ ياللشيطان ! .. كيف وقعنا فى هذا الخطأ ؟!.. إنها المرة الثانية ، التى يحدث فيها هذا .

كاد الفضول يقتلنا ، ونحن نتابع ما يفعله ، فى محاولة لرؤية النموذج من زاوية أفضل ، حتى أن (ديانا) غامرت برفع رأسها فوق مستوى طاولة العرض ، فجذبتها إلى أسفل ، وأنا أهمس فى عصبية :



كان (بندكت) يولينا ظهره ، ويخفى نصف المائدة بجسده الضخم ، فلم نر ذلك الشيء ..

- هل جننت ؟.. لو لمحك أحدهما ستكون العاقبة وخيمة ؟

ولكن لهفتها وفضولها الصحفى كانا يشتعلان ، وهى تسألنى :

- ما الذى تظنهما وجداه فى ذلك النموذج ؟

غمغمت وأنا أشدّ منها لهفة وفضولا :

- من يدرى ؟ .. انتظرى وسنرى .

وفجأة ، حدث اضطراب ما عند المائدة ، وبدا من حركة رأس (جورج) وابنه ، أنهما يتابعان جسمًا متحركًا فوقها ، وهتف الأوّل :

- أوقفه يا (بندى) .. لا تسمح له بالفرار :

تحرّك رأس (بندكت) لحظات فى توتر ، وانطلقت من حلقه زمجرة عصبية ، ثم رفع قبضته بغتة ، وهوى بها على المائدة ، فصرخ (جورج) :

- لا .. ليس هكذا .

ولكن (بندكت) أصيب بحالة هياج عجيبة ، فراح يضرب المائدة بقبضته مرات ومرات ، و (جورج) يصرخ ، محاولاً إيقافه :

- كفى يا (بندى) .. كفى .. كفى .

هتفت (ديانا) ، وقد بلغ منها الفضول مبلغه :

- ماذا يحدث ؟! .. ماذا يحدث ؟!

أمسكت بها فى قوة ، محاولاً السيطرة على انفعالها الجارف ، قبل أن يتسبّب فى كشف أمرنا ، وأنا أقول :

- رويدك .. رويدك .. ربما هو فأر صغير ، تسلّل خفية إلى النموذج .

لم يكن قولى محض تخمين فحسب ، وإنما كان نوعًا من الاستنتاج المنطقى ، الذى ارتبط بحركة رأسيهما ، وبتلك الدماء التى لوثّت قبضة (بندكت) ، الذى بدا مضطربًا فى شدة و (جورج) يقول فى انفعال :

ـ ما كان ينبغى أن تفعل ذلك أبدًا .. أبدًا .

خفض (بندكت) رأسه ، وهو يهمهم بكلمات خافتة غير مفهومة ، فتنهّد (جورج) فى قوة ، وقال :

ـ فليكن .. ما حدث قد حدث .. إنه القدر .

ثم التقط مظروفًا ، واستخدم قطعة مفلطحة من البلاستيك ، ليدفع بقايا ذلك الشىء ، الذى سحقته قبضة ابنه داخل المظروف ، وألقاه فى صندوق قمامة قريب ، وعاد يربّت على ظهر ابنه ، قائلاً :

ـ هيّا .. لا تبتئس هكذا .. سنضع النموذج مع أقرانه ، ثم نعود إلى المنزل .

نهض العملاق الصغير ، وسار خلف والده مخفض العينين ، نحو القبو ، حيث يحتفظ مستر (جورج) بنماذجه المتقنة .

وفجأة ، وقبل أن أنتبه لما يحدث ، غادرت (ديانا) مكانها ، واندفعت نحو صندوق القمامة ، فانتفض جسدى ، وأنا أهتف :

ـ ماذا تفعلين ؟

لست أدرى ما الذى دفعها إلى تلك المخاطرة فى الواقع ، ولكن يبدو أن فضولها الصحفى الأنثوى لم يحتمل الانتظار ، حتى ينصرف (جورج) وابنه ، لتعرف ما يحويه ذلك المظروف ، أو

أنها خشيت أن يتخلّصا من صندوق القمامة كله عند انصرافهما ..

المهم أنها فعلت ما فعلت ..

وأننى هتفت بالعبارة السابقة ..

المشكلة الوحيدة هى أننى هتفت بها فى صوت مرتفع ..

مرتفع أكثر من اللازم ..

مرتفع إلى الحد الذى بلغ مسامع (جورج) وابنه ، فالتفتا نحونا فى دهشة وانزعاج وهتف (جورج) :

ـ يا للشيطان !.. ماذا تفعلان هنا ؟!

ولم يكد ينطقها ، حتى أطلق (بندكت) زمجرة مخيفة ، واندفع نحونا ..

وفى حركة واحدة تقريبًا ، اختطفت (ديانا) المظروف ، من صندوق القمامة ، وانطلقت تعدو نحو الباب ، وأنا خلفها ، و (جورج) يصرخ :

ـ أوقفهما يا (بندى) .. أوقفهما ..

كنا نعدو فى رعب هائل ، وكأنما تطاردنا شياطين الجحيم كلها ، وقفزت (ديانا) تفتح باب المتجر الخلفى ، وهى تصرخ :

ـ أسرع .. أسرع .

عبرت الباب خلفها مباشرة ، وصفقته فى وجه (بندكت) ، الذى أطلق صيحة ألم غاضبة ، ونحن نجرى بكل قوتنا ، محاولين عبور الشارع ، وبلوغ السيارة ، قبل أن يصل إلينا ذلك الوحش ، وهتفت أنا منزعجًا ومذعورًا :

ـ كنت أعلم أن هذا سيحدث .. كنت أعلم .

لم أكد أتم عبارتى ، حتـى تعثَّرت (ديانـا) فـوق الأرض المغطاة بالثلوج ، وسقطت على وجهها ، وسقط منها المظروف أرضًا ، فاستدرت لأعاونها على النهوض ، فى حين اندفعت هى محاولة استعادة المظروف ، ولكنها لم تكد تمسك طرفه ، حتى سقطت فوقه قدم (بندكت) ، الـذى أطلق زمجرة رهيبة ، كادت تتجمّد لها الدماء فى عروقى ، وشهقت لها (ديانا) فى ارتياع ، فهتفت بها ، وأنا أجذبها فى قوة :

ــ ابتعدى .. اسرعى .

كان الموقف شديد التوتر ، و (جورج) يقفز خارج متجره ، ويهتف .

ــ المظروف يا (بندى) .. استعد المظروف .

وكنت مستعدًا فى تلك اللحظة ، للتخلى عن أى شىء فى الدنيا ، مقابل الفرار من ذلك الوحش الآدمى ، وبلوغ سيارتى ، إلا أن أصابع (ديانا) لم تفلت طرف المظروف أبدًا ، وتشبّثت به كما لو كان أملها الأخير فى الحياة ، فجذبتها بكل قوتى ، صارخًا :

ــ اتركيه .. اتركيه بالله عليك .

ومع جذبتى القوية ، تمزّق المظروف ..

وصرخت (ديانا) وهى تتشبّث بجزء ضئيل منه ، ولكننى واصلت جذبها فى إصرار ، ورحت أعدو بها نحو السيارة ، فى حين توقّف (بندكت) ، وانحنى يلتقط الجزء الأكبر من المظروف ، مما منحنا فرصة كافية لبلوغ السيارة ، وإدارة محركها ، و (ديانا) تهتف فى عصبية :

ــ ينبغى أن نستعيد ذلك المظروف .

صحت بها ، وأنا أراقب (بندكت) ، الذى استعاد المظروف ، وعاد يعدو نحو السيارة :

ــ اصمتى .

ومع صيحتى ، وثب (بندكت) نحونا ..

وضغطت دوّاسة الوقود بكل قوتى ، ولكن العملاق الوحشى تعلّق بالسيارة من الخلف ، على الرغم من انطلاقها ، فرحت أجره خلفى ، وهو يطلق زمجرته المخيفة ، التى امتزجت بصرخات (ديانا) :

ــ أسرع .. أسرع بالله عليك .

ولكنى ضغطت فرامل السيارة بغتة ، فارتطم (بندكت) بمؤخرة حقيبتها فى عنف ، وأطلق زمجرة غاضبة ، وأنا أعود لضغط دوّاسة الوقود ، وأنطلق بالسيارة بأقصى سرعة ، بعد أن أفلتتها قبضته ..

ولثوان ، ابتعدت السيارة وابتعدت ، وسط الشوارع الخالية ، تاركة (بندكت) والمنطقة كلها خلفها ..

ثم فجأة ، انفجرت (ديانا) باكية ..

كان من الواضح أن الوقت قد حان ، لتفرغ شحنة التوتر والانفعال ، التى امتلأ بها كيانها فى تلك الليلة ..

ولم أحاول منعها من البكاء ..

لقد تركتها لتسكب شجونها كلها مع عبراتها ، حتى انتهت تمامًا ، وجفّفت دموعها ، وهى تقول :

– ما كان ينبغى أن أورِّطك معى هكذا ..

أردت أن أجاملها بعبارة رقيقة ، أو أنطق بشىء ما يخفف من حدة الموقف ، إلا أننى فوجئت بنفسى أندفع قائلا :

– وأية ورطة !.. لقد رآنا الرجل فى وضوح ، تحت الأضواء الساطعة داخل متجره ، وهو يعرفنى جيدا ، ولا شك فى أنه قد التقط رقم سيارتى ، ولن يكون من العسير عليه أن يبلغ الشرطة باسم من اقتحم المتجر ..

غمغمت فى توتر :

– هذا لو فعل .

التفت إليها ، أسألها فى دهشة :

– ولماذا لا تتصورين أنه سيفعل ؟

رفعت قبضتها إلىّ ، قائلة :

– هذا يتوقف على نتائج الفحص .

قالتها ، وفتحت قبضتها ، التى استقرّ فيها ذلك الجزء الضئيل من المظروف الذى تلوّث بالدماء ، واحتوى على قليل من مادة تشبه اللحم ..

اللحم المفرى ..

* * *

« خطأ .. ما فعلتماه أكبر خطأ .. » .

صرخ (ألفريد) بالعبارة فى وجهينا فى غضب ، بعد أن استمع إلى قصتنا ، فى الثانية والنصف صباحا ، وراح يلوّح بذراعيه ، مستطردا فى حدة :

– اقتحام ممتلكات خاصة بدون وجه حق ، وسرقة مظروف يخصّ الغير ، وتعريض حياة مريض عقلى للخطر .. كلها جرائم تستحق العقاب .

قالت (ديانا) فى خفوت :

– كان من الضرورى أن أبحث عن تفسير ..

صاح بها غاضبا :

– هناك ألف وسيلة قانونية لهذا ، بدلا من التورط فى أعمال مخالفة للقانون ، كما يفعل اللصوص والمجرمون .. ماذا لو أبلغ الرجل الشرطة بالفعل .

أجابته فى توتر :

– لو فعل ، سأعترف بأننى كنت مخطئة .

تطلّع إليها فى دهشة ، قائلا :

– ماذا تعنين ؟ .

أجابته فى عصبية :

– أعنى أنه لو كان مستر (جورج) هذا واثقا من أنه لم يرتكب أية أعمال مخالفة للقانون ، فسيسارع بإبلاغ الشرطة ، عن أولئك الذين اقتحموا متجره عنوة ، وسرقوا جزءا من مظروف ، ألقاه فى صندوق القمامة ، أما لو كان عمله ينطوى على خطإ ما ، فسيحرص على كتمان الموقف ، ولن يبلغ الشرطة .

صمت (ألفريد) لحظات ، وكأنه يدرس موقفها ومنطقها ، ثم قال فى حدة :

– هذا ليس دليلا .. البعض يفضلون عدم إبلاغ الشرطة ،

للحفاظ على سمعة المتجر .

ضحكت فى عصبية ، وهى تقول :

ــ أية سمعة ؟! .. هل نسيت أننى صحفية قديمة ؟.. لقد تحريت عن ذلك المتجر ، وعلمت أنه لم تكن له أبدًا أية سمعة ، و(جورج) هذا بالذات لم يبد أية مواهب ، طوال نصف قرن ، هى عمر متجره ، فكيف أصبح عبقرية فذة هكذا فجأة ، وراح يصنع نماذج مذهلة للسيارات .

عقد (ألفريد) حاجبيه الكثين ، وهو يقول :

ــ ليس من الضرورى أن يكون هو صانعها .. المهم أنه الشخص الذى يبيعها ، والقانون لا يحظر هذا ، ولا يحظر أيضًا حفاظه على سرية اسم الصانع .

رفعت يدها إليه بذلك الجزء من المظروف ، قائلة :

ــ وماذا عن هذا ؟

تعلقت عيناه لحظة بالجزء الملوث بالدماء ، ثم قال :

ــ ماذا عنه ؟

قالت فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

ــ هل يمكنك أن تفحصه .. من أجلى ؟

صمت لحظات ، قبل أن يقول فى حزم :

ــ فليكن .. سأقوم بفحصه ، ولكن هذا سيكون آخر ما نفعله بخصوص هذه القضية .. آخره على الإطلاق .

لم تعترض (ديانا) على قوله هذه المرة ، ولكن شيئًا ما فى أعماقى جعلنى أشعر أن ذلك الفحص لن يكون نهاية البحث ..

لن يكون كذلك أبدًا .

* * *

٦ ــ فكرة مجنونة ..

لم أحصل على قدر كاف من النوم ، فى تلك الليلة ..

أو بمعنى أدق ، لم أنعم بالنوم قط ..

لقد قضيت الساعات القليلة المتبقية من الليل ، وذهنى يراجع الأحداث كلها ، متصورًا أن الشرطة ستقتحم منزلى فى أية لحظة ، وتلقى القبض علىَّ ، بتهمة اقتحام متجر مستر (جورج) ، ورحت أتقلب فى فراشى كالمحموم ، وألعن نفسى ألف مرة ، لأنها طاوعت نداء الحب ، وورطتنى فى تلك المغامرة السخيفة مع (ديانا) ..

ولكن جانبًا منى كان يشعر بشىء من السعادة ، على الرغم من كل هذا ..

السعادة ، لأنها لجأت إلىَّ أنا بالذات .

لأننى قضيت معها كل هذا الوقت ، حتى ولو كنا داخل متجر لُعب عتيق ..

ومع مرور الوقت ، راحت صورتها تملأ ذهنى ، وتزيح عنه الكثير من توتره وانفعاله ، واسترجعت مشاعرى تلك اللحظة ، التى ضغطت فيها يدى ، بكل رقتها وحنانها ، فسرى فى جسدى دفء لذيذ ، كاد يبعث الخدر فى أعماقى ، ويقودنى إلى نوم ممتع ، لولا أن ارتفع رنين المنبه فى اللحظة ذاتها ، ليعلننى فى قسوة أن موعد استيقاظى قد حان ، وأن محاضراتى ودروسى العملية تنتظرنى فى الجامعة ..

ولأوّل مرةَ ، منذ فترة طويلة ، لم أتناول قدح القهوة المعتاد فى الصباح ، حتى لا يزيد أعصابى توترًا ، وانطلقت على الفور إلى الجامعة ، وأنا أتلفت حولى طوال الوقت ، فى انتظار ظهور رجال الشرطة ، الذين سيلقون القبض علىّ .

حتى ذلك الشرطى البدين الطيب ، الذى يقف أمام الجامعة ، أثار شيئًا من الذعر فى نفسى بزيه الرسمى ، وهو يلقى علىّ تحية الصباح ، وابتسامته الودود تلتهم وجهه كله كالمعتاد ، وتصوّرت أنه سيتقدّم نحوى ، ويضع يده على كتفى ، قائلاً فى بساطة :

— مستر (نظمى) .. يؤسفنى أن ألقى القبض عليك .

وكان من الطبيعى أن تنخفض قدرتى على التركيز كثيرًا فى ذلك اليوم ، حتى أننى بذلت جهدًا خرافيًا لإلقاء محاضرة حول أشعة الليزر ، وشعرت أنها خرجت ضعيفة مشوّشة ، فوعدت طلبتى بإعادتها على مسامعهم مرة أخرى ، متعللاً بإصابتى بنوبة أنفلونزا ، تمنعنى من التركيز ..

ولقد تقبّل معظم الطّلاب قرارى هذا بارتياح ، فى حين راح البعض منهم يلقى أسئلة شغوفة ، حول قدرات وإمكانيات أشعة الليزر ، ثم سألتنى طالبة من أكثر الطّلاب تفوّقًا :

— هل يمكننا أن نعتبر أشعة الليزر من أقوى وأفضل أنواع الأشعة ، المعروفة فى عالمنا هذا ؟

هززت رأسى نفيًا ، وأنا أجيبها ، محاولاً تجميع شتات ذهنى :

— لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه (أقوى وأفضل أنواع

الأشعة المعروفة) ، فهناك أنواع مختلفة من الأشعة ، وكلها قوية ومفيدة ، طبقًا للغرض من استخدامها ، والنتائج المنشودة منها ، مثل أشعة (ألفا) و (بيتا) [١] ، والأشعة (تحت الحمراء) [٢] و (فوق البنفسجية) [٣] والسينية ، أو أشعة (رونتجن) [٤] ، وكذلك الأشعة (الكونية) [٥] .. المهم هو ماذا تريد ، وماذا يمكن أن يفيدنا أكثر فيما نريد .

---

(١) أشعة (ألفا) و (بيتا) : تنتج من التفتت التلقائى لنواة الذرة ، وهى ظاهرة كشفها (ميكريل) عام ١٨٩٦ م ، وكانت الأساس فى دراسة نواة الذرة .

(٢) الأشعة (تحت الحمراء) : أشعة غير مرئية ، تقع أطوال موجاتها بين (١٠٠٠) ، و (٧٥ و ٠) ميكرون ، ومن أهم خصائصها نقل الطاقة الحرارية ، وتستخدم فى التدفئة والتجفيف ، وفى التصوير فى الظلام ، كما أنها تؤثّر فى الخواص الكهربية فى بعض السطوح شبه الموصلة .

(٣) الأشعة (فوق البنفسجية) : أشعة كهرومغنطيسية غير مرئية ، تقع أطوالها الموجية بين (٤٠٠٠) ، و (٤٠٠) انجستروم ، ومن أهم مصادرها الشمس ، ويمكن إنتاجها صناعيًا فى الأقواس الكهربية ، وخاصة القوس الزئبقى ، وإليها يرجع الفضل فى تكوين طبقة الأوزون ، التى تغلف الكرة الأرضية ، والجرعات المناسبة منها مفيدة فى قتل الميكروبات وتنشيط بعض التفاعلات الكيمائية الحيوية ، وزيادتها مدمرة للخلايا البشرية .

(٤) أشعة (رونتجن) ، أو الأشعة السينية : أشعة كهرومغنطيسية نفّاذة ، تمتد أطوالها الموجية بين (١) و (١٠٠٠ و ٠) انجستروم ، كشفها (فيلهلم رونتجن) ، وتنتج من اصطدام الإليكترونيات السريعة بالمواد المعدنية وتستغل خاصيتها النفاذية فى إعطاء صورة ظلية لأعضاء جسم الإنسان ، وفى تشخيص بعض الأمراض .

(٥) أشعة كونية : أشعة تصل إلى الأرض من الفضاء الخارجى ، طاقتها كبيرة جدًا ويعتقد أن معظم الأشعة الأولية (بروتونات) ، وكثير منها يصطدم بجزيئات غازات الهواء ، فتفتت ذراتها ، وتنتج الأشعة الكونية الثانوية ، وتشمل الإلكترونات ، والبروتونات ، والنيوترونات ، وأشعة جاما ، والميزونات ، وكثيرًا من الجسيمات تحت الذرية الأخرى ، ويرجع الفضل للأشعة الكونية فى كشف الكثير من الجسيمات الأولية .

سألتنى مرة أخرى :

ــ لماذا تبدو أشعة الليزر أكثر فائدة فى العلم الحديث إذن ؟

أجبتها فى شىء من الضجر :

ــ ربما لأنها الأكثر استخدامًا فى الأجهزة الصوتية والمرئية ، والأكثر شيوعًا فى الاستخدامات الصناعية ، و ...

فجأة ، انحبست الكلمات فى حلقى ..

لقد رأيت ذلك الشرطى البدين عند باب القاعة ، يشير إلىَّ بيده ، ووجهه مازال يحمل تلك الابتسامة البلهاء ..

إذن فقد حدث ما كنت أخشاه ..

لقد أبلغ مستر (جورج) الشرطة التى أتت لإلقاء القبض علىَّ ..

واعتصرت قبضة باردة كالثلج قلبى ، وأنا أحدق فى ذلك الشرطى ، وأتخيل موقفى المؤسف ، والشرطة تقتادنى فى ساحة الكلية ، والأغلال تحيط بمعصمىَّ ، و ..

« دكتور (نظمى) .. إننى أتحدث إليك .. » .

انتبهت على صوت الطالبة ، فالتفت لأجدها تتطلع إلىَّ فى حيرة ، قائلة :

ــ إنك لم تكمل الجواب .

حدقت فيها لحظة ، فى شرود عجيب ، قبل أن أقول فى توتر :

ــ معذرة .. إننى أشعر ببعض الإعياء .. سأجيب أسئلتك فيما بعد .

وتركتها متجهًا إلى حيث يقف ذلك الشرطى ، وبدت لى قدمىَّ وكأنهما داخل غلاف من الصلب الثقيل ، وأنا أجرهما جرًا إلى باب

القاعة ، وهو يواصل الابتسام ، ويتابع حركتى البطيئة نحوه فى هدوء مستفز ، حتى أصبحت أمامه مباشرة ، فقلت بصوت أشد شحوبًا من وجهى :

ــ أنت تريدنى .. أليس كذلك ؟!

اتسعت ابتسامته أكثر وأكثر ، وهو يجيب :

ــ بالتأكيد .

ومد يده نحوى ، فانهارت أعماقى ، ومددت له يدىَّ ، ليحيط معصمىَّ بالأغلال ، إلا أننى فوجئت به يضع شيئًا معدنيًا فى راحتى ، فهتفت فى دهشة :

ــ ما هذا ؟

أجابنى بابتسامته الكبيرة :

ــ نسيت مفاتيح سيارتك فى بابها .

حدقت فى سلسلة المفاتيح فى راحتى ، قبل أن أهتف :

ــ فقط .

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ إنه ليس بالأمر البسيط يا دكتور (نظمى) .. كان من الممكن أن يلمحها لص ما ، ويسرق السيارة كلها ، و ..

لم أصدق نفسى ، وهتفت أقاطعه فى سعادة :

ــ يا إلهى ! .. أشكرك يا (ألبرت) .. أشكرك كثيرًا .

بدت عليه الدهشة ، وأنا أشد على يده بتلك الحرارة ، ثم عاودته نوبة الابتسامة ، وهو يرفع قبعته الرسمية ، قائلاً :

ــ لم أفعل سوى واجبى .

شعرت بارتياح شديد ، وأنا أنصرف من الكلية ، فى منتصف النهار ، بعد أن مضى كل هذا الوقت ، دون أن يحدث أى شىء ، وتذكرت تأكيد (ديانا) على أن مستر (جورج) لن يحاول إبلاغ الشرطة ، وتساءلت عن تلك الحاسة السادسة التى تتمتع بها كل أنثى ، وتجعلها قادرة على استنباط أمور بعينها ..

ومجرد التفكير فى (ديانا) ، أعاد إلى جسدى ذلك الشعور الممتع بالدفء ، على الرغم من البرودة الشديدة للطقس فى الخارج ، وتمنيت لو أننى التقيت بها ثانية ، وقضيت بصحبتها بضع ساعات ، حتى ولو اقتحمنا معًا مجلس العموم البريطانى هذه المرة ..

وفجأة ، خفق قلبى فى عنف ..

لقد رأيت سيارتها أمام منزلى ، فأسرعت أوقف سيارتى خلفها ، وهبطت منها فى لهفة ، وأسرعت إليها ، وهتفت فى سعادة :

ــ يا للمفاجأة !.. لم أتوقع زيارتك هذه !

ابتسمت من داخل سيارتها ، ولوّحت لى بيدها ، ثم غادرت السيارة ، وصافحتنى وهى تقول فى جدية :

ــ الرجل لم يبلغ الشرطة .

غمغمت ، وأنا أقودها إلى منزلى ، وأحمل عنها حقيبتها الكبيرة :

ــ أعلم هذا .

جلسنا معًا فى حجرة الاستقبال ، حيث ازدحمت الجدران بنماذج السيارات المختلفة ، وهى تقول :

ــ هل تعلم .. لقد أجريت بعض التحريات حول الأمر .

سألتها فى اهتمام :

ــ أى نوع من التحريات ؟

مالت إلى الأمام ، وبدت لى شفتيها جميلتين للغاية ، وهى تجيب :

ــ تحريات صحفية .

ثم شبكت أصابعها أمامها ، وتابعت فى حماس واضح :

ــ تقارير الشرطة تؤكد وجود زيادة ملحوظة فى حوادث سرقة السيارات فى الشهور الأخيرة .

لم أفهم علاقة هذا بنماذج مستر (جورج) ، فتراجعت فى مقعدى ، وسألتها فى شىء من الحيرة :

ــ ما الذى يملأ رأسك بالضبط يا (ديانا) ؟

أجابتنى فى جدية شديدة :

ــ فكرة مجنونة ، ولكنها تتناسب مع كل الأحداث .

ازدردت لعابى فى قلق ، وأنا أسأل :

ــ مجنونة إلى أى حد ؟!

استعادت حماسها ، وهى تقول :

ــ أعتقد أنه هناك فنان مجنون ، يقوم بصنع هذه النماذج الممتازة ، ولكى يتقن عمله إلى حد الكمال ، يقوم بسرقة السيارات ، وتقليد كل جزء منها بمنتهى الدقة .

أدهشنى ذلك التفسير ، الذى توصلت إليه ، وبدا لى ، على الرغم من غرابته ، منطقيًا إلى حد كبير ، وخاصة مع ما نقرأ عنه

يوميًا ، من أخبار الفنانين وجنونهم ، وتلك الأساليب العجيبة ، التى يلجئون إليها أحيانًا ، أو ترتبط بشخصياتهم غير النمطية ، ولكننى سألتها :

ـ ولكن لماذا ظهر ذلك الفنان الآن فقط ؟! .. كيف لم نسمع عنه من قبل ؟

أشارت بسبَّابتها ، قائلة :

ـ لقد ألقيت على نفسى السؤال ذاته .

ثم طرقعت سبابتها وإبهامها ، مضيفة :

ـ ووجدت الجواب المنطقى .

بدت لى فاتنة ساحرة ، وهى تتحدث بكل هذا الحماس ، ووجدت نفسى منجذبًا لحديثها بكل حواسى ، وهى تتابع :

ـ من المؤكد أن ذلك الفنان ليس بريطانيًا ، وإنما هو شخص أجنبى ، وصل إلى بلادنا منذ فترة وجيزة ، وهو على الأرجح صينى أو روسى .

سألتها فى دهشة :

ـ ولماذا صينى أو روسى بالتحديد ؟!

أجابتنى فى سرعة :

ـ لأن هذين الشعبين بالذات شديدا الاهتمام بفن المنمنمات .. هل تعرفه ؟! .. إنه ذلك الفن الذى يتعامل مع الأشياء بالغة الدقة والصغر .. لقد قرأت فى ملفاتنا أن أحد الفنانين السوفيت فى هذا المجال ، صنع يومًا نموذجًا لزهرة الأوركيد ، داخل فراغ شعرة رأس آدمية ، وآخر صنع مسدسًا لا يمكن رؤيته إلا بعدسة

تكبير ضخمة .. بل إن أحد فنانى المنمنمات الصينيين قد صنع شطرنجًا كاملاً ، بلوحته وقطعه كلها ، بحجم رأس الدبوس (*) حتى أن رؤيته لم تكن ممكنة إلا تحت عدسات المجهر (**) ، وهذه الدقة أشبه بالدقة التى تم صنع نماذج السيارات بها .. لقد فحصت ذلك النموذج الذى اقتناه أبى ، بوساطة آلة تصوير ، مثبتة على منفاخ أسود ، وهذا الأسلوب يمنحنى نسبة تكبير مقدارها عشرون إلى واحد من الحجم الأصلى ، ووجدت أن المحرك يحوى كل الأجزاء الرئيسية ، الموجودة فى المحركات الحقيقية ، فمن يمكنه صنع شىء كهذا ، سوى فنان مبدع ، من فنانى المنمنمات .

حاولت هضم الفكرة هذه المرة ، إلا أنها أصابتنى بشىء من عسر الهضم ، جعلنى أعترض قائلاً :

ـ ولكن فنانًا بهذه الموهبة الخارقة لن يظل مجهولاً هكذا ، ولن يسعى لبيع نماذجه بهذه السرية ، بل سيبذل قصارى جهده لتقديم أعماله للنقاد ورجال الصحافة والإعلام ، حتى يحوز شهرة واسعة ، تضاعف أسعار تحفه عشر مرات على الأقل .

(*) الوقائع المذكورة كلها حقيقية ، وتقام فى (روسيا) معارض سنوية لفن المنمنمات ، تظهر فيه إبداعات أكثر إثارة للدهشة فى كل مرة .

(**) المجهر : آلة بصرية ، تستخدم لتكبير صور المرئيات ، ويتكون الشكل البسيط منها ، من عدسة محدبة الوجهين ، بوضع الجسم على مسافة منها أقل من البعد البؤرى ، فترى العين له خلالها صورة مكبرة معتدلة ، أما النوع الأكثر تركيبًا ، فله عدسة شيئية ، وأخرى عينية ، والنوع الإليكتروني الحديث يعتمد على تيار من الإليكترونيات ، بدلاً من الضوء العادى .

لوّحت بكفها ، قائلة :

– لا يمكنك أبدًا فهم الفنانين ، ولا إخضاع تصرفاتهم للمنطق العادى .

تنهدت ، قائلاً :

– ربّما .

غلّفنا الصمت لحظات ، وكلانا يتطلع إلى الآخر ، ثم سألتنى (ديانا) فى صوت خافت ، يحمل رنة أسى واضحة :

– نظريتى لم تقنعك .. أليس كذلك ؟

انفطر قلبى لحزنها ، ولكن طبيعتى العلمية منعتنى من قول ما لا أومن به ، فقلت فى خفوت :

– إنها نظرية ممتازة ، ولكن حديث (جورج) مع ابنه ، كان يوحى بأنه يحصل على ثمن بيع النماذج كله لنفسه ، وهذا لا يتفق مع نظرية ذلك الصانع المجهول .

قالت فى شىء من التردُّد :

– ربما يشترى (جورج) هذه النماذج من الصانع الحقيقى بثمن بخس ، ثم يبيعها لحسابه بثمن ضخم ، ويكتفى ذلك الفنان المجهول بالحصول على ثمن السيارة المسروقة عند بيعها .

سألتها مبتسمًا :

– وما الذى يدفعه إلى المخاطرة بالكثير ، وقبول القليل ؟

صمتت فى حيرة ، ودارت عيناها فى المكان ، وكأنها تبحث عن حل آخر ، أو تفسير جديد ، ثم لم تلبث أن لوّحت بذراعها ، وهى تتراجع فى مقعدها ، قائلة فى حنق :

– مهما حدث ، لن يمكنك إقناعى قط بأن مستر (جورج) التافه هذا ، هو الصانع الحقيقى لتلك النماذج العبقرية .

قلت بسرعة :

– من المؤكّد أنه ليس صانعها ، ولكن هناك تفسيرًا آخر للموقف ، بخلاف فكرة الفنان المجهول هذه ، على الرغم من أنها بدت لى منطقية فى البداية .

أطلقت زفرة قوية ، وهى تقول فى مرارة :

– عقلى يكاد ينفجر من شدة التفكير والبحث عن تفسير .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى ارتفع رنين الهاتف ، فالتقطت سمّاعته فى حركة آلية ، ووضعتها على أذنى ، قائلاً :

– دكتور (نظمى سيف الدين) .. من المتحدّث ؟

أتانى صوت (ألفريد) مفعمًا بالانفعال ، وهو يقول :

– إنه أنا يا (نظمى) .. لا يمكنك أن تتصوّر ما وجدته ، عندما فحصت تلك البقايا .

اعتدلت فى حركة حادة ، وأنا أقول :

– ماذا وجدت يا (ألفريد) ؟.. ماذا وجدت ؟

هتفت (ديانا) ، وهى تقفز من مقعدها :

– أهو أبى !! .. ماذا وجد فى محتويات المظروف ؟

كادت تلصق أذنها بسمّاعة الهاتف ، لتستمع إلى (ألفريد) ، وهو يقول :

– لقد فحصت تلك الدماء .. إنها نفس خلايا الدماء المعروفة ، ولكنها أصغر حجمًا بخمس عشرة مرة على الأقل ، أما الأنسجة

الموجودة ، والتى ينطبق عليها الأمر نفسه ، فهى ..

بتر عبارته بغتة بشهقة مكتومة ، وساد صمت مخيف لحظة ، صرخت خلالها :

ـ (ألفريد) .. ماذا حدث يا (ألفريد) ؟

وصرخت (ديانا) فى رعب :

ـ أبى .. أبى ..

وحاولنا إجراء الاتصال معه مرة أو مرتين ، ولكن هاتفه لم يستجب ، فانطلقنا بسيارتى إلى منزله على الفور ، وأسرعت (ديانا) إلى معمله ، وهى تهتف :

ـ أبى .. أبى .. ماذا حدث يا أبى ؟!

ولكنها لم تكد تقتحم المعمل ، حتى أطلقت صرخة رعب هائلة ، ارتجت لها جدران المنزل كله ، وأنا ألحق بها ، وأتلقى نصيبى من الصدمة .

لقد كان (ألفريد) ملقى أرضًا ، والدماء تسيل من جرح واضح فى جبهته ، وإلى جواره مجهره الأثير محطمًا ، وعيناه تحدقان فى الفراغ ، وقد فقدتا أهم ما فيهما .

البريق ..

بريق الحياة .

* * *



لقد كان (ألفريد) ملقى أرضًا ، والدماء تسيل من جرح واضح فى جبهته ..

٧ ـ البريق ..

لم تتوقَّف (ديانا) عن البكاء لحظة واحدة ، منذ كشفنا لجثة (ألفريد) ، وحتى وصول رجال الشرطة ، حتى خُيِّل إلىَّ أنها قد سكبت ألف لتر من الدموع ، وأن ذلك الشحوب الشديد فى وجهها ، يعود إلى الجفاف الذى أصابها من جراء هذا ، ولكن العجيب أنها سيطرت على دموعها ومشاعرها تمامًا ، عندما وصل مفتش الشرطة (جراى) ، وبدأ بفحص المكان مع فريقه ، قبل أن يقول :

ـ من الواضح أنها جريمة قتل عمد ، ولكن أحدًا من المارة أو الجيران لم ينتبه إلى حدوث شىء ما ، وهذا يجعل المهمة عسيرة ، مالم يكن لديكما ما تضيفانه .

سألته فى اهتمام :

ـ وماذا عن البصمات ؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ـ لم يعد هذا يجدى منذ فترة طويلة ، فالجميع يشاهدون أفلام السينما و (التليفزيون) ، وأى طفل صغير الآن يرتدى قفازات مطاطية ، حتى لا يترك بصماته على المبرِّد ، عندما يسرق منه قطعة شيكولاتة .

أحنقنى أسلوبه المتعالى ، فقلت فى حدة :

ـ من الواضح أن الجميع يشاهدون تلك الأفلام ، فأنت تقلِّد شرطى السينما .

انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول :

ـ دعابة سخيفة .. والآن هل لديكما ما ترغبان فى إضافته ؟

كدت أقصّ عليه قصة مستر (جورج) ونماذجه ، ولكن (ديانا) سبقتنى إلى الحديث ، قائلة :

ـ كان من المفترض أن هناك عينة ، يقوم أبى بفحصها ، ولكنها اختفت تمامًا ، ولا يوجد أى تقرير عنها .

قال المفتش (جراى) فى دهشة :

ـ عجبًا ! .. المفترض أن الدكتور (ألفريد) قد اعتزل العمل فى دائرة الشرطة ، منذ ما يقرب من العامين ، مكتفيًا بمحاضراته الجامعية .

قالت فى حدة :

ـ هذا لا يعنى أنه لم يعد طبيبًا شرعيًا .

رمقها بنظرة محنقة ، قبل أن يقول فى لهجة جافة :

ـ بالتأكيد .. هل تظنين أن تلك العينة من الأهمية ، بحيث يتم قتله من أجلها ؟

أجابته فى حزم :

ـ نعم .

عاد حاجباه ينعقدان فى شدة ، وهو يسألها :

ـ وما نوع تلك العينة ، التى يُمكن أن يُقتل شخص ما بسببها ؟

تصورتُ لحظة أنها ستقصّ عليه قصة (جورج) ، أو جزءًا منها على الأقل ، إلا أننى فوجئت بها تشير إلى جثة والدها ، قائلة :

ـ سله هو ، فكل ما أخبرنى به هو أنه يفحص عينة إجرامية بالغة الخطورة .

ندت منى حركة غريزية ، وكأننى أهمّ بالاعتراض ، ثم بدا لى أنه من غير اللائق أو المنطقى أن أفعل ، مادمت أجهل هدفها من هذا الموقف ، فتراجعت بسرعة بدت لى مناسبة ، إلا أنها لم تبد كذلك بالنسبة للمفتش (جراى) ، الذى استدار نحوى بحركة حادة ، ورمقنى بنظرة صارمة ، بدت وكأنها ستنفذ إلى أعماقى ، وتنتزع أغوارى ، قبل أن يعود بعينيه إلى (ديانا) ، ويسألها :

ـ هل تتهمين أحدًا بقتل والدك ؟

كدت أنفجر دهشة وغيظًا ، عندما هزّت رأسها نفيًا ، وأجابت :

ـ كلاّ .. لا يمكننى اتهام شخص ما بالتحديد .

وصمتت لحظة ، قبل أن تضيف فى حزم :

ـ ليس بدون دليل .

رمقها المفتش (جراى) بنظرة أخرى صارمة ، ثم أخرج بطاقته ، وناولها إياها ، قائلاً :

ـ فليكن .. هذه بطاقتى ، وبها كل أرقام هواتفى .. لو تذكّرت شيئًا ما ، فى أى وقت ، أو وجدت أنه هناك من يمكنك اتهامه بقتل والدك ، لا تترددى فى الاتصال بى على الفور ، فى أية لحظة من الليل أو النهار .

غمغمت ، وهى تلتقط البطاقة ، وتدسّها فى جيبها :

ـ سأفعل .

تطلّع إليها لحظة أخرى فى صمت ، وكأنما يحاول اختراق ذلك الجدار الصلب من الغموض ، الذى أحاطت به نفسها ، ثم التفت إلى فريقه ، قائلاً :

ـ هيا يا رجال .. لم يعد لدينا ما نفعله هنا ..

ظلّت (ديانا) محتفظة بصلابتها وتماسكها ، وهم ينقلون جثة (ألفريد) ، ويغادرون المكان كله ، وعندما ابتعدت سياراتهم ، قلت لها فى حدة :

ـ لماذا لم تتهمى مستر (جورج) وابنه بقتل (ألفريد) ؟

أجابتنى ، وهى تتطلّع عبر النافذة :

ـ لم يكن هذا ليؤدى إلى شىء .

هتفت محنقًا :

ـ ليس من شأننا أن نقرّر هذا .. كان المفترض أن نبلغ المفتش (جراى) بالأمر ، ومهمته هو أن يبحثه ويمحّصه ، و ...

قاطعتنى قائلة :

ـ لن يهتم بك أحد بدون دليل .. لا تنس أننى صحفية قديمة فى عالم الجريمة ، وأعرف الكثير عن هذه الأمور .. كل ما يمكن أن يحدث هو أن يذهبوا لسؤال (جورج) ، ويعلنوا اتهامنا له ، وسيسخر منا ومنهم ، ويكون قد أخفى نماذجه فى مكان آخر ، مما يمنحه فرصة إنكار كل شىء ، وسينتهى الأمر بتوجيه اللوم إلينا ، لأننا اتهمنا بريئًا دون دليل واحد ، وربما يقاضينا (جورج) أيضًا ، بتهمة الإساءة إلى سمعته .

بُهتَ لكلامها ، وغمغمت :

ـ لم أكن أعرف كل هذا .

أجابتنى ، ومازالت تتطلّع عبر النافذة :

ـ هذا أمر طبيعى .. أنت عالم فيزيائى ، ولست متخصصًا فى هذا المجال العنيف .

أخرسنى إحساس بالندم وتأنيب الضمير لدقيقة أو يزيد ، ظلّت هى خلالها تتطلّع عبر النافذة فى صمت تام ، قبل أن يتهدّج صوتها بغتة ، وهى تقول :

ــ كم سأفتقده .

وعندما استدارت إلىّ ، كاد قلبى ينشطر ، ويهوى بين قدمىّ ، مع وجهها الغارق فى بحر من الدموع ، جعلنى أهتف فى لوعة :

ــ (ديانا) .. أنت تبكين .. كنت أتصوّر بعد تماسكك أمام رجال الشرطة أن ..

لم أستطع إتمام عبارتى ، التى بدت لى فجة خالية من الذوق ، ولكنها أومأت برأسها ، وكاد صوتها يبكى معها ، وهى تقول :

ــ لا يمكننى أن أبكى أمام أى مخلوق ، فالدموع لا ينبغى أن تنسكب إلا أمام شخص تثق به ، و ..

وارتجف صوتها ، وهى تضيف :

ــ وتحبه .

قالتها ، واندفعت نحوى ، وألقت نفسها بين ذراعىّ ، ثم تفجّر من عينيها نهر من الدموع ، يغرق صدرى وقلبى ..

ومن المؤكّد أنكم ستتهموننى بالأنانية المفرطة ، وبجمود المشاعر أمام عواطف الآخرين ، إلا أنه ، وعلى الرغم من دقة الموقف ، ومن مصرع (ألفريد) ، وذلك الحزن الذى يملأ نفس (ديانا) ، كانت هذه هى أسعد لحظات حياتى كلها ..

اللحظة التى اعترفت فيها (ديانا) بحبها لى ..

ويالها من لحظة ! ..

لقد أحطتها بذراعىّ فى حب وحنان ، وتركتها تفرغ انفعالاتها كلها حتى النهاية ، قبل أن تجفّف دموعها ، وتهمس :

ــ معذرة .

هتفت :

ــ هل تعتذرين ؟!

تراجعت فى رفق بالغ الرقة ، وكادت روحى تنسحب معها ، وكاد قلبى يثب من بين ضلوعى ليتشبّث بها ، لولا أن استعاد عقلى ذلك الموقف العصيب ، الذى تمر به ، فسألتها فى خفوت :

ــ ماذا ينبغى أن نفعل ؟

جلست على أوّل مقعد صادفها ، وهى تقول :

ــ نحن نختلف عن الشرطة فى أننا لا نحتاج إلى دليل مادى .. يكفينا أننا واثقان من أن مستر (جورج) وراء ما حدث ، وأنه فعل ما فعل لاستعادة تلك العينة ، التى كان أبى يقوم بتحليلها .

سألتها فى حيرة :

ــ وكيف علم أنه سيفعل ؟

لوّحت بيدها ، قائلة :

ــ (جورج) ليس غبيًا ، لقد انتخب أبى ، من بين أعضاء جمعيّة هواة جمع نماذج السيارات ، ليعرض عليه نماذجه ، وهذا يعنى أنه أجرى عنه تحريات كافية ، ويعلم جيدًا أنه طبيب شرعى شهير ، ثم أنه التقى بك منْ خلال أبى ، ومادام لم يستعد المظروف كله ، ويدرك أننا حصلنا على جزء منه ، فسيمكنه أن يستنتج بسهولة أننا سنلجأ إلى أبى لتحليل محتوياته .

امتلأت نفسى بحيرة شديدة ، وأنا أقول :

ـ ولكن ما ذلك الشىء الذى كان يحويه المظروف ، والذى يستحق أن يلجأ شيخ مثل مستر (جورج) للقتل ، حتى لا ينكشف أمره ؟

هزّت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

ـ لست أدرى .. كل ما نعلمه عن هذا الشىء هو أنه كان داخل نموذج السيّارة ، وأنه شىء حىّ ، وفراره من المكان يمكن أن يعرّض مستر (جورج) للخطر ، ثم إن (بندكت) قتله بقسوة ، وسحقه بقبضته على المائدة .

غمغمت :

ـ لقد تصوّرت فى البداية أنه مجرّد فأر صغير ، تسلّل خفية إلى النموذج ، وأن (بندكت) المختلّ قتله بقبضته .

أومأت برأسها موافقة ، وقالت :

ـ أنا أيضًا تصوّرت هذا ، ولكن لهفة (جورج) الشديدة على استعادة المظروف ، وقتله والدى من أجل استعادة الجزء الذى حصلنا عليه منه ، وحديثه مع (بندكت) عن الخطأ الذى تكرّر مرّتين ، كلها جعلتنى واثقة من أن ذلك الشىء ، الذى سحقه (بندكت) ، لم يكن شيئًا عاديًّا .

سألتها حائرًا :

ـ وماذا يمكن أن يكون ؟

هزّت رأسها ، قائلة :

ـ لست أدرى .. لا يمكننى حتى استنتاج هذا .

وصمتت لحظات ، قبل أن تضيف فى حزم :

ـ ولكن هناك وسيلة لمعرفة الجواب .

هتفت بها فى انزعاج :

ـ لا تقولى إننا سنقتحم متجر مستر (جورج) ثانية .

وشعرت بالارتياح ، عندما هزت رأسها نفيا ، وقالت :

ـ كلاّ .. لن نفعل .

تنهّدت قائلا بالعربية :

ـ حمدًا لله .

ولكن قلبى هوى بين قدمىّ ، وهى تستدرك فى حزم :

ـ سنراقب مستر (جورج) نفسه .

ثم لان صوتها ، واكتسب رنّة تفيض بالحنان والرجاء ، وهى تستطرد :

ـ هل يمكنك أن تعاوننى فى هذا ؟

أخبرنى بالله عليك ..

هل كان بإمكانى أن أرفض ؟! ..

* * *

كثيرًا ما أتساءل ، منذ حداثتى ، عن السر فى إصرار الطبيعة على معاندة المرء ، كلما ارتبطت بها أفعاله ، فالجو يظل صحوا طوال الأسبوع ، وعندما تقرّر القيام برحلة خلوية ، تكفهر السماء فجأة ، وتتصارع فيها السحب الكثيفة ، ويتصادم بعضها مع البعض ، لتنهمر دموعها على أم رأسك ، وتفسد يومك ورحلتك .. وهذا ما حدث معنا ، فى الأيام التى قرّرنا فيها مراقبة (جورج) ..

لقد انخفضت درجات الحرارة بشدة ، على نحو لم تشهده (أوروبا) كلها منذ زمن طويل ، حتّى كادت أطرافنا تتجمّد ، ونحن نجلس داخل السيارة ، على مقربة من منزل (جورج) ، الذى حصلت (ديانا) على عنوانه باتصالاتها الصحفية ، والثلوج تنهمر على السقف ، وتتساقط على الزجاج الأمامى ، الذى أضطر لمسحه كل فترة وأخرى ، حتى لا تنعدم الرؤية عبره طويلا ..

وليومين كاملين ، لم يغادر (جورج) مسكنه ، منذ عودته من متجره ، وحتى صباح اليوم التالى ..

بل ولم يطلّ حتى من النافذة .

ولقد قدّرت (ديانا) أنه يفعل هذا ، خشية أن نكون قد أبلغنا الشرطة بأمره ، فوضعته تحت نوع ما من أنواع المراقبة ، وأنه لن يلبث أن يعاود تحركاته اليومية ، عندما يشعر بالاطمئنان ، وإن كنت لا أدرى كيف سيشعر بهذا ، ونحن نراقبه بالفعل ..

ولكن العجيب أنه عاود تحركاته .

وفى اليوم الثالث فحسب .

كنت قد بدأت أشعر بالملل والسخط ، وأفكّر جديًا فى العودة إلى منزلى، والاستمتاع بالدفء ، إلى جوار مدفأتى العريقة، وحاولت إقناع (ديانا) بأن تشاركنى هذا ، دون أن أعترف لها بأن سنوات عمرى ، التى تجاوزت الخمسين بعدة أشهر، ليست قادرة على احتمال البرودة القارصة ، التى يمكن أن تحتملها سنوات عمرها الثلاثين ، ولكننى فوجئت بها تعتدل بحركة حادة ، وتهتف فى حماس :

ــ ها هو ذا .

استدرت أُحدّق فى الطريق ، عبر كرات الثلج ، التى تراكمت على الزجاج ، ووقع بصرى على (جورج) ، وهو يغادر منزله ، داخل معطف سميك ، وغطاء رأس من الفراء ، وخلفه (بندكت) بحجمه الضخم ، مرتديًا معطفًا من الفراء ، جعله أشبه بدبّ عملاق ، ودس الاثنان نفسيهما داخل سيارتهما القديمة ، التى انطلقت فوق البساط الثلجى الأبيض ، الذى يفرش الطرقات ، فأدرت محرّك سيارتى بسرعة ، و (ديانا) تقول فى انفعال :

ــ لا تضئ المصابيح ، وحافظ على مسافة معقولة بيننا وبينهم ، حتى لا ينتبهوا إلى أننا نتبعهم .

لم أكن أميل بطبعى إلى تلك الأساليب البوليسية ، ولكننى أطعتها ، ورحت أتتبّع السيارة لنصف ساعة كاملة، وهى تتحرّك نحو أطراف العاصمة ، حتى توقّفت فى ضاحية هادئة ، فقالت (ديانا) :

ــ قف.. لا تقترب منهم أكثر .. سنغادر السيارة على أقدامنا ، لو غادروا سيارتهم هنا .

تمنيت لحظتها لو أنهما ظلا داخل سيارتهما، وفضّلا عدم الخروج ، فى هذا الطقس الثلجى المزعج ، إلا أنهما تجاهلا أمنيتى ، وتركا السيارة عند الناصية ، ثم ترجّلا فى المكان لحظات ، قبل أن يشير (بندكت) بيده إلى منطقة ما ، فى شارع جانبى ، لا يمكننا رؤيته من موضعنا ، فأومأ (جورج) برأسه إيجابا ، ودلف معه إلى ذلك الشارع الجانبى ، فجذبتنى (ديانا) ، وهى تقول :

ــ هيا .. أسرع ، وإلا فقدنا أثرهما .

تحرّكنا معًا فى سرعة، واتسعت خطواتنا فى لهفة ، حتى اقتربنا

من ذلك الشارع الجانبى ، ولهثت (ديانا) ، وهى تقول فى انفعال .

ــ أراهنك على أنهما يسعيان لسرقةَ سيّارة جديدة .. أكاد أقسم على هذا .. إنه التفسير الوحيد لـ ..

فجأة ، وقبل أن تتم عبارتها ، انبعث ذلك الوميض ، من الشارع الجانبى ..

وميضٌ مباغت سريع ، أشبه بوميض مصباح تصوير ، ولكنه فيروزى اللون ، يقترن بصوت أشبه بالفحيح ، أو بصوت اندفاع الهواء ، عبر تجويف ضيق :

ولقد انتفض جسدانا ، مع ذلك الوميض ..

انتفضا ، وسرت فيهما رجفة عجيبة ، امتزجت بقشعريرة باردة ، جعلت (ديانا) تلتصق بى فى ذعر مبهم ، وهى تهمس فى هلع :

ــ ما هذا ؟ .. ما هذا بالضبط ؟

حاولت أن أجيب ، أو حتى أن أهدئ أعصابها المتوترة بعبارة ما ، إلا أن لسانى تجمَّد فى حلقى ، ولم أستطع النطق بحرف واحد ، وذهنى يعمل فى توتر بالغ ، وحيرة أشدّ عنفًا ..

أى نوع من الأشعة هذا ؟! .

أيها يمكن أن يعطى ذلك الوميض القرمزى الخاطف ، بكل ما يبعثه فى النفس من ذعر وخوف واضطراب ؟!

وقبل أن يبدأ عقلى عمليةَ الفرز والتصنيف ، وتحديد النوع المناسب من أنواع الأشعة الخاطفة ، اندفع (جورج) وابنه خارج ذلك الشارع الجانبى ..

وكانت لحظة رهيبة ..

لقد تجمَّد أربعتنا تمامًا ، وارتسمت المفاجأة على وجوهنا ، وغلَّفنا صمت رهيب ، ميَّزت خلاله ذلك النموذج الذى يحمله (بندكت) ، لسيارة من طراز (مازدا) ، زهرية اللون ، قبل أن يهتف (جورج) :

ــ وقِّفهما يا (بندى) .

ولابد أن أعترف هنا ، بأن ذلك الدب الآدمى يمتلك سرعة استجابة مدهشة ، فعلى الرغم من الصدمة التى أصابته ووالده ، عندما رأيانا أمامهما ، عند ناصية ذلك الشارع الجانبى ، إلا أنه لم يكد يسمع صيحة والده ، حتى ألقى إليه النموذج الذى يحمله ، وانقضَّ علينا فى وحشية ، وهو يطلق من حنجرته زمجرة شرسة مخيفة ، جعلتنا نتراجع معًا ، و (ديانا) تطلق صرخة رعب مكتومة .

والعجيب أنه ، وهو الأكثر ضخامة ، كان أخفَّ منا حركة ، فلحق بنا فى لحظة واحدة ، قبل أن ننطلق هاربين ، وقبض على شعر (ديانا) ليجذبها إليه فى قوة ، جعلتها تطلق صرخة ذعر وألم وارتياع ، فصرخت فيه :

ــ اتركها أيها الوغد .

لم أكن يومًا ممن يبنون أجسادهم ، أو يواظبون على القيام بأى نوع من التمرينات أو التدريبات الرياضية ، إلا أننى لم أكد أرى ما فعله بحبيبتى (ديانا) ، حتى هاجمته كالمجنون ، ولكمته بكل قوتى فى معدته .

وقبل أن ترتد إلىَّ قبضتى، كنت قد أدركت الخطأ الذى ارتكبته ..

لقد استقبلت معدة ذلك الوحش قبضتى ، كما لو كانت جدارًا من الصلب ، فى حين اندفعت قبضته هو تلكمنى لكمة ، بدت لى وكأن

سيارة نقل ذات مقطورة قد انقضّت على فكى بأقصى سرعتها ، فتراجعت فى عنف ، وانزلقت على الأرض المغطاة بالثلج ، وسقطت على ظهرى ، فى نفس اللحظة التى ركلته فيها (ديانا) فى ساقه ، صارخة ..

ـ اتركنى أيها الوحش .

صفعها على وجهها فى وحشية ، فمادت بها الأرض ، وانقلبت عيناها ، وكادت تسقط فاقدة الوعى ، مما أصابنى بغضب وجنون لا حصر لهما، فنهضت من كبوتى ، وهاجمته مرة أخرى ، وأنا أصرخ مستنجدًا ، ولكنه أمسك بى من شعرى وطوّحنى فى خفة ، كما لو كنت شيئًا لا وزن له ، ثم ضرب بى الجدار بكل قوته ..

وأعتقد أننى سمعت صوت (ديانا) ، وهى تصرخ باسمى ..

أعتقد هذا فحسب ، ولكن لا يمكننى الجزم به ، ففى اللحظة التالية ، كانت علاقتى بالسمع والرؤية قد انقطعت مؤقتًا ..

والاسم العلمى لهذا بسيط ومعروف ..

إنه (الغيبوبة) .

* * *

لست أدرى كم بقيت فاقد الوعى ، ولكن من المؤكد أنها فترة ليست بالطويلة ، ولكننى أفقت لأجدنى داخل سيارة (جورج) ، التى تتوقّف فى منطقة شبه مقفرة ، لا يوجد بها سوى جرن قديم أنبأنى بأننا الآن خارج العاصمة ..

وأوّل ما شعرت به ، عندما استعدت وعيى هو الدهشة ..

هذا لأننى لم أفقد وعيى من قبل قط ، على الرغم من سنوات عمرى الخمسين ..



وقبض على شعر (ديانا) ليجذبها إليه فى قوة ..

صحيح أننى رأيت أناسًا يفقدون وعيهم ، سواء فى الأفلام السينمائية ، أو فى عالم الواقع ، أو على صفحات القصص والروايات ، إلا أننى كنت أتساءل دومًا ، كيف يحدث لهم هذا ؟ وما شعورهم تجاهه ؟.. وكنت أتصوَّر أننى من الأشخاص الذين لا يمكن لأى شىء فى الدنيا أن يفقدهم وعيهم .

أما فى اللحظة التالية للدهشة مباشرة ، فقد سيطر على الخوف والقلق ..

كان (بندكت) يجلس إلى جوارى ، ويرمقنى بنظرة قاسية ، فى حين يوقف (جورج) السيارة ، وإلى جواره (ديانا) فاقدة الوعى ، فاعتدلت قائلا فى توتر :

ـ ما الذى تنوى أن تفعله بنا يا مستر (جورج) ؟

تنهَّد (جورج) فى شىء من الأسف ، وهو يجيب !

ـ ما كان ينبغى لكما أن تدسا أنفيكما فى شئونى .. إنكما تجبرننى على فعل ما أكرهه .

أدركت ما ينتويه من عبارته ، فقلت فى عصبية :

ـ فليكن .. سنتوقَّف عن دس أنفينا فى شئونك .. سنعود إلى منزلنا ، ونغلق فمينا إلى الأبد .

هزَّ رأسه فى أسى ، وغمغم :

ـ فات الأوان للأسف .

وأشار إلى ابنه ، فدفعنى خارج السيارة فى غلظة ، ثم انتزع (ديانا) من مقعدها ، وألقاها إلى جوارى فى خشونة ، جعلتها تتأوَّه ألمًا ، وتستعيد وعيها ، مغمغمة :

ـ أين أنا ؟.. ماذا حدث ؟

لم تكد تنطقها ، حتى وقع بصرها على (جورج) و (بندكت) ، فشهقت فى ارتياع ، وقفزت تحتمى بى ، فأحطت كتفيها بذراعى ، وأنا أقول فى توتر :

ـ ولكن لماذا يا مستر (جورج) ؟!.. ما الذى يضطرك إلى التخلُّص منا ؟

هتفت (ديانا) :

ـ ألم تفهم بعد ؟.. إنه الشخص الذى يسرق السيارات .. إنه اللص الخاص بصانع اللُّعب المجهول .

هزَّ (جورج) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لم تفهمى شيئًا .. لم تفهمى شيئًا .

قلت فى غضب :

ـ فليكن .. اشرح لنا أنت الأمر .. من يصنع تلك النماذج ؟

صمت لحظات ، وكأنما يدرس فى ذهنه أمرًا ما ، ثم أجاب فى حزم :

ـ أنا ؟

لوَّحت (ديانا) بذراعها ، وهى تقول :

ـ هراء .. لن يمكنك إقناعى أبدًا بأن صانعًا رديئًا مثلك ، يمكنه أن يصنع تحفًا كهذه .. أنت مجرَّد لص سيارات ، ولكن هناك صانع آخر ، يستمد إلهامه من السيارات المسروقة .

ابتسم (جورج) فى شىء من الزهو ، وهو يقول :

ـ أخطأت فى نصف الحقيقة يا سيِّدتى .. صحيح أننى أسرق

السيارات ، ولكننى أيضًا صانع النماذج المبهـرة ، والفضل يعود إلى مصادفة مدهشة .

قالت فى صرامة ..

ــ المصادفات لا تصنع عبقريًا ..

ضحك قائلاً :

ــ ولكنها فعلت ..

ثم أخرج من جيبه قضيبًا شفافًا ، ينتهى بمقبـض من الجلد ، واستطرد :

ــ والفضل لهذا .

قالت (ديانا) فى دهشة :

ــ وما هذا بالضبط ؟

برقت عيناه ، وهو يجيب :

ــ إنه المصادفة .. المصادفة التى صنعت كل هذا .

قالها ، وانطلق يروى القصة بلا توقف ..

القصة المذهلة .

* * *

٨ ــ المصادفة ..

لم أر فى حياتى كلها عينين تتألقان بشهوة الدنيا كلها ، كما رأيت عينى مستر (جورج) ، وهو يروى قصته ، قائلاً :

ــ قضيت حياتى كلها أصنع الدمى والنماذج واللُعب الخشبية ، وأبيعها فى متجرى القديم ، دون أن أحقق سوى نجاح محدود ، مكننى بصعوبة من استئجار منزل بسيط ، بعيدًا عن قلب العاصمة ، وشراء سيارة متواضعة ، والعيش بدخل محدود ، لا يرقى أبدًا إلى مرحلة الاكتفـاء بالضروريات ، والسعى لامتـلاك الكماليات ، وعلى الرغم من زواجى فى سن مبكرة ، إلا أننا ــ أنا وزوجتى ــ لم ننجب سوى ابن واحد وهو (بندكت) هذا ، الذى أتى إلى الدنيا بعيب خلقى ، وتشوهات فى الوجه والصدر ، جعلتـه مجرد مسخ ضعيف العقل ، عانينا كثيرًا لتربيتـه وتنشئته ، حتى ماتت زوجتى منذ خمس سنوات ، وتركت الحمل كله على عاتقى ، فقررت أن أقضى عمرى كله فى محاولة تربيـة (بندى) ورعايته .

وألقى نظرة طويلة على ابنه ، قبل أن يتابع :

ــ وعندما قرأت فى مجلـة أمريكيـة عن ذلك الجرّاح ، الذى ابتكر نوعًا خاصًا من الجراحات الحديثـة ، القادرة على خفض درجة التخلف العقلى ، ورفع مستوى ذكاء من هم على شاكلة (بندى) ، عن طريق تحسين الـدورة الدمويـة المخيـة ، وتنشيط السائل المخى ، أسرعت أتصل به ، وأسـأله عن التكلفة المطلوبة

لإجراء الجراحة ، فأخبرنى أنها تقترب من المائة ألف جنيه استرلينى .

وتنهّد فى عمق ، ثم استطرد :

ـ وكان المبلغ رهيبًا بالنسبة لى ، حتى أن مجرّد التفكير فيه كان يرهق ميزانيتى المحدودة ، مما أجبرنى على التنازل عن الفكرة ، والاكتفاء بالتحسّر عليها ، وعلى الفرصة التى تضيع ، بسبب قلة مواردى .

وعادت عيناه تتألقان ، وهو يضيف :

ـ ثم جاءت تلك المصادفة المذهلة .

قالت (ديانا) فى عصبية :

ـ والتقيت بصانع اللُعب ، الذى أقنعك بسرقة السيارات لحسابه .

ابتسم فى سخرية ، وهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ من الواضح أنك لم تفهمى شيئًا بعد .

ورفع ذلك القضيب الشفاف ، قائلاً :

ـ هذه هى المصادفة العجيبة ..

ثم خفضه ، مستطردًا :

ـ ففى متجرى جزء خاص ، لشراء اللُعب القديمة والمستعملة ، وإصلاحها ، وإعادة بيعها بثمن مناسب ، ولدى عدد كبير من الزبائن ، من ذوى الدخول المحدودة ، الذين يقبلون على هذا القسم بالذات .. وذات يوم ، حضر إلى متجرى طفل صغير ، وقدّم لى هذا الشىء ، وطلب جنيهًا واحدًا ثمنًا له ، ولما

كان ذلك الشىء طريف الشكل ، فقد نقدته المبلغ الذى طلبه ، وفكّرت فى إضافة بطارية صغيرة إلى القضيب الشفاف ، مع مصباح مختلف الألوان ، وبيعه كمصباح ملوّن ، وعندما حاولت فصل الجزء الشفاف عن المقبض الجلدى ، حدث الأمر فجأة ، كقصة مصباح (علاء الدين) (*) ، وخرج الجنى من المصباح ..

انعقد حاجباى فى شدة ، فى حين قالت (ديانا) فى توتر :

ـ مصباح وجنى ؟! .. هل تسخر منا يا رجل ؟

قهقه (جورج) ضاحكًا ، قبل أن يقول :

ـ إنه تعبير مجازى يا آنستى ، فالمصباح ليس سوى ذلك القضيب العجيب ، الذى أجهل أين وكيف عثر عليه الصبى ، أما الجنىّ فهو تلك الأشعة الفيروزية ، التى تنطلق منه ، وتصنع ذلك التأثير المذهل .

وأمسك نموذج السيارة (المازدا) ، ولوّح به ، قائلاً :

ـ الأشعة التى تحوّل السيارات إلى نماذج كهذه ..

اتسعت عيناى فى ذهول ، وأنا أحدّق فى النموذج الذى يمسكه ، فى حين شهقت (ديانا) ، وهتفت مستنكرة :

ـ كلا .. لا تحاول إقناعنا بهذا .. إنه ليس واحدًا من أفلام الخيال العلمى ، لتسخر منا على هذا النحو .. لن أصدّق أبدًا أنك تستطيع تصغير جسم حقيقى بأية أشعة كانت !!

(*) مصباح (علاء الدين) : قصة من التراث العربى القديم ، تتحدّث عن صبى صغير ، حاول ساحر شرير استغلاله للحصول على مصباح سحرى ، يقيم داخله جنىّ ينفذ طلبات صاحبه ، ولكن الصبى (علاء الدين) احتفظ بالمصباح ، وسخّر الجنى لخدمته ، فهزم الساحر الشرير .

هزّ كتفيه فى لا مبالاة ، وهو يقول :

ـ صدّقى أولا تصدّقى ، ولكن هـذه هـى الحقيقـة .. وكـل ما أحتاج إليه هو تصويب ذلك الجزء الشفاف نحو الشـىء المراد تصغيرة ، ثـم الضغط على المقبض الجلدى فى قوة ، فتنطلـق الأشعة الفيروزية ، ويبدأ الشىء الذى أصابته فى التقلّص بسرعة ، حتى يصبح فى هذا الحجم .

اندفعت أقول فى توتر شديد :

ـ مستحيل ! .. هل تقصد أن كل تلك النمـاذج لم تكن سوى سيارات حقيقية ، تم تقليصها بوساطة شعاعك الفيروزى هذا ؟

أومأ (جورج) برأسه إيجابًا فى شـىء من الزهو ، جعلنى أهتف :

ـ لهذا كانت متقنة تمامًا ، وبالغة الدقة إلى حد مذهل .. رباه !. إنه التفسير الوحيد ، الذى لم يجل بخاطرنا قط .

هتفت (ديانا) فى عصبية:

ـ لا تصدّقه يا (نظمى) .. إنه مخادع .. لو أن هذا القضيب الذى يمسك بـه قـادر بـالفعل على تقليص الأشياء ، فلمـاذا لـم يستخدمه لتقليصنا ، بدلا من أن يحملنا إلى هذه المنطقـة المقفرة للتخلّص منا ؟!

أجابها (جورج) فى هدوء :

ـ لأننى لا أستطيـع استخـدام الأشعـة مرتيـن متتاليتيـن .. لست أدرى لماذا بالضبط ، ولكنـه أمر أشبـه بتلك الأشياء التى يتم

شحنها .. القضيب لا يحوى أى مصدر للطاقـة ، ولكنـه يكتسبها من مصدر ما ، وهذا يحتاج إلى ساعتين أو يزيد ، مـا بين كل طلقة وأخرى .

انعقد حاجباها فى صرامة ، وهى تقول :

ـ تفسير طريف ، ولكنه أيضًا لا يقنعنى .

مطّ (جورج) شفتيه وهو يقول :

ـ آه .. أنت تحتـاجين إلى دليـل أقوى .. فليكن .. لقد فقدت



كلبك مع سيارتك (التويوتا) القرمزية .. أليس كذلك ؟

شحب وجهها ، وهى تقول :

ـ (ريكى) .. ماذا فعلت به أيها الوغد .

ابتسم (جورج) فى تشف ، ثم أشار إلى (بندكت) ، قائلاً :

ـ أرهم لعبتك يا (بندى) .

تهللت أسارير (بندكت) ، ودسّ يده فى جيب معطفه ، ثم أخرجها ، وفرد راحته أمام وجهينا ، وهو يبتسم أكثر ابتسامات الدنيا مقتًا وبشاعة .

وتراجعت (ديانا) كالمصعوقة ، وهى تطلق شهقة هلع ، فى حين حدّقت أنا فى راحته ذاهلاً مبهورًا ..

فهناك ، فى وسط راحته ، كان ينبح كلب من طراز مرفّه ، لا يزيد حجمه على حجم جرز صغير ..

وصرخت (ديانا) فى ارتياع :

ـ (ريكى) ؟! .. مستحيل !.. مستحيل !

وقفزت يدها محاولة التقاط كلبها المتقلص ، ولكن (بندكت) أبعده فى سرعة ، وهو يزمجر غاضبًا ، شأن أى طفل ، حاول آخر الاستيلاء على لعبته المفضلة ، فصاحت (ديانا) :

ـ إنه كلبى .. أعده إلىّ .

أما أنا ، فالتفت إلى (جورج) ، وقلت فى توتر :

ـ إذن فذلك الشىء ، الذى سحقه ابنك فى المتجر ، كان كلبًا آخر .

بدا الأسف على وجه (جورج) ، وهو يقول :

ـ كلاً .. لم يكن كذلك .

وتنهّد فى عمق ، قبل أن يستطرد .

ـ لقد كان آدميًا .

انتفض جسدى فى رعب ، وسرت فيه قشعريرة اشمئزاز عنيفة ، ووثب عقلى يستعيد ذلك المشهد ، و (بندكت) يهوى بقبضته على المائدة مرات ومرات ، ثم يرفعها ملوّثة بالدماء ، وشعرت بمعدتى تنقبض فى شدة ، فى حين هتفت (ديانا) :

ـ يا للبشاعة ! .. يا للبشاعة !

وتفجّر جوفها فجأة عبر حلقها ، وأفرغت محتويات معدتها كلها فى ألم ، فأسرعت أربّت عليها ، ومنحتها منديلى ، وأنا أقول فى حدة :

ـ أى مخلوق أنت ؟.. وأى وحش ابنك هذا .. لقد سحقتما آدميًا بلا رحمة أو شفقة .. يا إلهى ! .. إذن فهذا ما كان يقصده (ألفريد) المسكين ، عندما قال : إن خلايا الدم معروفة ، ولكنها أقل حجمًا بخمس عشرة مرة .. كان يقصد أنها دماء وخلايا بشرية .

بدا التوتر فى صوت (جورج) ، وهو يقول :

ـ كانت غلطة غير مقصودة .. خطأ غير متعمّد .. يبدو أن ذلك الرجل كان نائمًا داخل السيارة ، فلم ننتبه إلى وجوده فى أثناء تقليصها ، ولكنه استيقظ فى المتجر ، وأصابه الذعر لرؤيتنا ، عندما بدونا له كعملاقين رهيبين ، وحاول الفرار فى يأس ورعب ، مما أثار توتر (بندكت) ، فتحرك فى تلقائية ، وسحقه بقبضته .. كان رد فعل غير مقصود ، من شخص له مثل عقليته .

خفض (بندكت) عينيه ، كصبى صغير يتلقى التأنيب ، و ...

وفجأة ، برزت الفكرة فى رأسى ..

لقد انتبهت فجأة إلى أن (جورج) وولده لا يحملان سلاحًا فى مواجهتنا ، باستثناء أشعة التقليص ، التى لا أدرى ما إذا كان شحنها قد اكتمل أم لا .

وعلى الرغم من أننى لم أفعل هذا فى حياتى قط ، بل ولم أتصور نفسى أبدًا أفعله ، وجدتنى أندفع نحو (بندكت) بغتة ، وأضم قبضتىّ ، ثم أهوى بهما مجمعتين على فكه ..

وكان التأثير قويًا للغاية ..

تأثير المفاجأة والضربة معًا واختل توازن (بندكت) ، وسقط على ظهره ، وهو يطلق خوارًا كالثور الذبيح ، فصرخت وأنا ألتقط يد (ديانا) .

ـ اجرى .. اجرى بكل قوتك .

صرخ (جورج) فى لوعة ، وهو يعدو نحو ولده ، ويفحصه مذعورًا ، فى حين انطلقت أنا أجرى مع (ديانا) ، وقد اتخذنا ذلك الجرن القديم وجهة لنا ، دون أن ندرى لماذا فعلنا هذا ، والأرض أمامنا ممتدة بلا نهاية ..

ومن خلفنا ، سمعنا (جورج) يصرخ :

ـ أعدهما يا (بندى) .. لا تسمح لهما بالفرار .. أعدهما .

ولم تكد صرخته تكتمل ، حتى تعالى من خلفنا وقع أقدام ثقيلة ، لم نكن بحاجة إلى الالتفات إليها ، لندرك أن (بندكت) يطاردنا كخرتيت ثائر ، مما زاد من سرعتنا ، وجعلنا نتجاوز حتى الرقم

القياسى لأبطال مسابقات العدو للمسافات القصيرة ، حتى بلغنا ذلك الجرن القديم ، واندفعنا داخله ، و ..

وشهقت (ديانا) فى ارتياع ..

كنا كمن ألقى نفسه عمدًا بين فكى أسد ، أو داخل مصيدة قوية ، لا فكاك منها ، فلقد اقتحمنا الجرن ، لنجد أنه مغلق من كل جوانبه ، باستثناء المدخل الذى عبرناه ، والذى يعدو (بندكت) نحوه بكل قوته ..

وفى ارتياع كامل ، صرخت (ديانا) :

ـ ماذا نفعل ؟.. ماذا نفعل ؟

تلفتَ حولى ، وأنا أشد ذعرًا منها ، ولمحت سلمًا خشبيًا كبيرًا ، يستند إلى طابق علوى للجرن ، فهتفت بها :

ـ أسرعى إلى هناك .

جرينا نحو السلم ، ولكن (بندكت) بلغ الجرن قبل أن نصل إليه ، فصرخت (ديانا) فى رعب ، إلا أننى دفعتها نحو السلم ، قائلاً :

ـ اصعدى .. اصعدى بسرعة ..

كنت أعلم أن الوقت لن يسعنا للصعود معًا ، ولكن بسالة مفاجئة ملأت قلبى ، وجعلتنى مستعدًا لمواجهة الموت نفسه ، لو اقتضى الأمر ، فى سبيل الذود عن (ديانا).. عن الحب الوحيد ، فى حياتى كلها ..

وفى جرأة أدهشتنى شخصيًا ، استدرت أواجه ذلك المسخ الآدمى ، الذى انقضَّ علىّ فى غضب هادر ، حاولت التصدى له بقبضتى ، إلا أنه تلقى لكمتى فى ثورة ، ولطمنى بكفه فى صدرى ،

لطمة انتزعتنى من مكانى ، وألقتنى ثلاثـة أمتار على الأقل إلى الوراء ..

وعندما نهضت وأنا ألهث فى ألم ، استقبلتنى قدمـه الضخمـة بركلة فى وجهى ، أضافت مترًا زائدًا إلى الأمتار الثلاثة السابقة .

ولكننى سقطت إلى جوار سلاح ..

شوكة حرث ضخمـة ، تركها أولئك الذين هجروا المكـان ، وكأنما لم يعد يعنيهم أمرها ..

وفى سرعةَ ، التقطت الشوكة الثقيلة ، ولوَّحت بها فى وجه (بندكت) ..

لم أكن أقصد أكثر من إرهابه ، إلا أن الأطراف الحادة للشوكة أصابت صدره ، ومزَّقت جزءًا من معطفه ، فصرخ فى غضب ، وضربها بيده فى عنف ، فأطاح بهـا بعيدًا ، قبل أن يحملنى من معطفى ، ويلقى بى لمترين آخرين ..

وعندما ارتطمت بالأرض هذه المرة ، وجدت نفسى إلى جوار السلم تمامًا ، وسمعت (ديانا) من الطابق العلوى تهتف :

ـ اصعد يا (نظمى) .. اصعد بسرعةَ .

لم أدر بمَ يفيد الصعود بالضبط ، إلا أن الموقف لم يكن يسمح بالتفكير ، فوثبت أتعلَّـق بالسلم ، ورحـت أتسلَّقه بكل قوتـى وسرعتى ، ومن خلفى تنطلق زمجرة (بندكـت) الغاضبـة ، وهو يعدو نحو السلم ، ويتسلَّقه بدوره خلفى ، و (ديانا) تصرخ فى رعب هائل :

ـ أسرع يا (نظمى) .. أسرع بالله عليك .

لست أدرى كيف اكتسبت كل هذه الرشاقة ، ولكننى تسلَّقت السلم فى ثوان معـدودة ، ووثبت إلى الطابق الثـانى ، واستـدرت لأجد (بندكت) خلفى مباشرة ، وقد انقلبت سـحنته المخيفة على نحو رهيب ، حتى بـدا أشبه بشيطان مريد ، ويده تمتد لتقبض على كاحلى ، و (ديانـا) تصرخ وتصرخ ، فضربت السلم بكل قوتى ، مستخدمًا قدمىَّ فى آن واحد ، ورأيت عينـا (بندكت) تتسعان لحظةَ ، قبل أن يهـوى مع السلم ، ويرتطم بـالأرض فى عنف ..

ومع ارتطامه ، أطلق (بندكت) صرخـة بشعة ، انشطر لها قلبانا ، (ديانا) وأنا ، فاندفعت أنظر إلى الطـابق السفلى ، حيث كان فى انتظارى مشهد رهيب بشع ..

لقد سقط (بندكت) فوق شـوكة الحـرث الضخمـة ، التـى اخترقتْ ظهره ، وعبرت جسده ، وبـرزت أسنانها الحـادة مـن صدره ..

وجحظت عينا (بندكت) ، والدماء تتدفَّق من بين شفتيه على نحو مخيف ، ثـم لـم يلبـث بريـق الحيـاة أن خبـا مـن العينيـن الجاحظتين بغتةَ ، وانتفض الجسد الهائل انتفاضة عنيفة ، قبل أن تخمد حركته تمامًا ..

وفى اللحظةَ نفسـها ، ارتجَت جـدران الجرن القديم بصرخـة هائلةَ عظيمة ، أطلقها مستر (جـورج) ، وهو يعـدو نحو ابنـه ، صائحًا :

ـ (بندى) .. وا صغيرى (بندى) .

انكمشنا فى ذعر ، ثم لم تلبث (ديانا) أن أشارت إلى بقعة فى نهاية الطابق الثانى هامسة :

ــ هناك نافذة فى الخلف .

أسرعنا إلى تلك النافذة ، ونحيب (جورج) وصراخه يملآن المكان ، وهو يتحسس جثة ابنه كالمخبول ، ومن حسن حظنا أننا وجدنا سلمًا خلف النافذة ، استخدمناه للهبوط ، ثم قلت لـ (ديانا) فى توتر بالغ :

ــ سنعدو حتى السيارة ، وننطلق بها مبتعدين .

أطاعتنى دون مناقشة ، ورحنا نجرى جنبًا إلى جنب ، حتى بلغنا السيارة ، وساعدت (ديانا) على دخولها ، ثم درت حول مقدمتها ، و ..

وفجأة ، برز (جورج) من الجرن ، وهو يصرخ :

ــ لن تفرا بفعلتكما أبدًا .. أبدًا .

كان يصوّب نحونا ذلك القضيب الشفاف ، فصحت فى (ديانا) :

ــ اقفزى خارج السيارة .. أسرعى .

لم أكد أنطقها ، حتى رأيت شعاعًا مستقيمًا ، أشبه بشعاع الليزر له لون فيروزى ، ينبعث من قمة القضيب ، ويمرق على مسافة سنتيمترات قليلة منى ، ليرتطم بجسم السيارة ..

وشعرت بطاقة هائلة تدفعنى إلى الأمام ، لمسافة أربعة أمتار كاملة ، مع وميض فيروزى قوى ، امتزج بصرخة (ديانا) ، وبصوت المفتش (جراى) ، وهو يصرخ :

ــ توقّف يا هذا .

ثم سمعته يطلق شهقة قوية ، مستطردًا :

ــ ماهذا بحق السماء ؟

استدرت لأجد سيارة (جورج) تتألق بشدة ، ثم يتقلص حجمها بسرعة مدهشة ، وعلى مقربة منها يقف المفتش (جراى) ، محدقًا فيها فى ذهول ، فى حين يصرخ (جورج) :

ــ كلكم تستحقون هذا .. كلكم .

التفت إليه (جراى) بسرعة ، ورآه يصوّب ذلك القضيب نحوه ، فاستلّ مسدسه فى سرعة ، وأطلق النار ثلاث مرات متتالية سريعة ..

وتفجّرت الدماء من صدر (جورج) ورأسه ، وعنقه ، وترنّح لحظة ، ثم هوى أمام الجرن جثة هامدة ، والمفتش (جراى) يهتف فى سخط محنق :

ــ انظر ما الذى جعلنى أفعله .. انظر ما استدرجنى إليه .

نهضت زائغ البصر ، أبحث عن (ديانا) فى ارتياع ، ووقع بصرى على سيارة (جورج) المنكمشة المتقلصة ، والمفتش (جراى) يتابع فى عصبية :

ــ كنت أعلم أنكما تخفيان شيئًا ما ، وراقبتكما خفية ، وأنتما تتبعان (جورج) وابنه ، وسمعت كل ما قاله ، ولكن من المستحيل أن أضع هذا فى تقرير رسمى ، .. من سيصدّق هذا ؟!. من ؟!

لم أهتم كثيرًا بحديثه ، وأنا أهرع إلى السيارة المتقلّصة ، هاتفًا باسم (ديانا) ، وكيانى كله ينتفض ويخفق لكل حرف من حروف اسمها ، والتقطت السيارة ، ورفعتها إلى عينىّ ..

وانهار قلبى تمامًا ..

لقد حدث ما كنت أخشاه ..

وياللهول ما حدث !

* * *

٩ ـ الختام ..

لا شك عندى فى أنكم قد فهمتم الموقف كله الآن ..

لقد سقطت (ديانا) المسكينة ضحية لأشعة التقليص اللعينة ! ..

لم تستطع مغادرة السيارة فى الوقت المناسب ، فانكمشت معها ، وتحولت إلى كائن ضئيل صغير ، أشبه بالدمى التى تلهو بها الصغيرات ..

هل عرفتم الآن لماذا أبتاع الكثير من تلك الدمى الصغيرة وثيابها ؟! ..

هل أدركتم سر اهتمامى الكبير ببيت الدمية ، الذى أحتفظ به فى منزلى ؟! ..

إنه المنزل الذى تقيم فيه حبيبتى (ديانا) ، منذ ذلك اليوم المشئوم ..

لقد أخفيت أمرها عن الجميع ، إلا عن شقيقتى الوحيدة (سوسن) ، التى حضرت من (مصر) خصيصًا ، لتشرف على رعايتها والعناية بها ..

ومن حسن الحظ أننى نجحت فى استعادة كلبها (ريكى) ، من جيب (بندكت) ، فلقد صار هو أنيسها الوحيد فى منزلها الجديد ..

وأنا أقضى معها أوقاتًا طويلة كل يوم ، ونتحدث معًا ، إلا أن الحزن لم يفارقنى أو يفارقها لحظة واحدة ، طوال العام المنصرم ، الذى قضيته كله محاولاً سبر أغوار ذلك القضيب الشفاف ، الذى تنطلق منه أشعة التقليص ..

كنت أحتاج بشدة لدراسة كل ما يتعلق بتلك الأشعة العجيبة ،

التى أجهل حتى مصدرها ، حتى يمكننى إنتاج أشعة مضادة ، تعكس مفعولها ، وتعيد حبيبتى (ديانا) إلى عالمها ..

ولقد جندت خبراتى كلها لهذا البحث ، الذى يشترك معى فيه اثنان من أفضل تلامذتى .. أحدهما مصرى الجنسية ، والثانى سورى ..

(محمد) و (باسل) ..

وكل منهما يعتقد أننا سنحتاج إلى عامين على الأقل ، حتى نفهم طبيعة تلك الأشعة ، التى لا تنطبق عليها القواعد ، التى تحكم أى نوع آخر من أنواع الأشعة المعروفة ..

الشىء الوحيد الذى توصلنا إليه ، هو أن ذلك القضيب الشفاف يستمد طاقته من النجوم ، وهذا سر تأخر شحنه ..

لا ريب أن الطاقة التى تنبعث من النجوم تحوى نوعًا من الأشعة ، لم نتوصل إليه بعد ..

أشعة تعبر غياهب الكون ، قبل أن تبلغنا ..

وربما جاء هذا القضيب الشفاف أيضًا من وراء النجوم ..

ومن أعماق الكون ..

من يدرى ؟!..

ولكن أحدًا منكم لم يسألنى بعد ، لماذا قررت أن أكتب لكم قصتى الآن ، بعد مضى عام كامل على هذه الأحداث ؟..

الواقع أننى أفعل هذا ، لأننى اتخذت قرارًا حاسمًا ، سيكون له أبلغ الأثر فى حياتى ومستقبلى ..

لقد بعت ممتلكاتى كلها ، فى (مصر) و (انجلترا) ، وأودعت المبلغ كله كوديعة بنكية ، باسم شقيقتى (سوسن) ، تمنحها دخلاً معقولاً طيلة العمر ..

هذا لأننى مازلت أحب (ديانا) حبًا ملك شغاف قلبى ، وسيطر على حواسى ومشاعرى كلها ..

أحبها حتى النخاع ..

ومن أجل هذا الحب ، قررت أن أتزوجها ..

نعم .. ما دمت قد عجزت عن إعادتها إلى حجمها الطبيعى ، بعد عام كامل من البحث ، فالوسيلة الوحيدة لأنعم بقربها ، هى أن أتقلص أنا إلى حجمها ..

وهذا ما سأفعله اليوم ..

ولن نحتاج إلى عقد زواج رسمى معتمد ، لأننا حالة خاصة ، تحتاج إلى قواعد خاصة ..

سيعقد قراننا صديق مصرى ، يشرف على المسجد المقام عند أطراف العاصمة ، وسيكون شاهدا العقد هما (محمد) و (باسل) ، اللذين سيواصلان الأبحاث ، حتى يتوصلا إلى وسيلة لإعادتنا لحجمنا الأصلى بإذن الله ..

وحتى يحين ذلك الحين ، سأنعم بقرب (ديانا) .. المخلوقة الوحيدة التى اختارها قلبى ، وخفق لها ، وانتخبها من دون العالمين ، ليمنحها كل ما أدخره فى أعماقى من حب وحنان ، طوال أكثر من نصف قرن ..

أما قصتى ، فستبقى وثيقة للأجيال القادمة ..

وثيقة سيستنكرها البعض ، ويكذبها البعض ، ويسخر منها البعض الآخر ..

ولكنها ستبقى أبدًا رمزًا للغموض الذى يحيط بنا فى هذا الكون ، الذى لم نعلم عنه إلا قليلًا ..

ورمزًا لأمر أعظم ..

للحب ..

الحب بلا حدود .

[تمت بحمد الله]

* * *

حلول اختبر معلوماتك



١ ـ ابن البيطار .
٢ ـ بارومتر .
٣ ـ الأخطبوط .
٤ ـ الفضة .
٥ ـ بابليون .
٦ ـ البدانة .
٧ ـ الطاقة .
٨ ـ الكرة الطائرة .
٩ ـ البلع .
١٠ـ الشفق .
١١ـ أسد بن الفرات .
١٢ـ الشريان .
١٣ـ الإسفنجيات .
١٤ـ الكونغو .
١٥ـ البن .
١٦ـ واترلو .
١٧ـ وليم شيكسبير .
١٨ـ براج .
١٩ـ بازلاء .
٢٠ـ ابن إياس .



باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة



فـــاى
سلسلة جديدة
عمليــة
النســر
المنفــرد
(الجزء الأول)

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

الثمن فى مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم